۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾
وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾
قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ
يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ
يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ
قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ
عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ
لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا
ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

*ثم لما كان فى هذا الكلام نوع تزكية لنفسها و أنه لم يجر منها ذنب فى شأن يوسف استدركت فقالت:-(وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ)من المراودة و الهمِّ و الحرص الشديد و الكيد فى ذلك.

(إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ)لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء أى: الفاحشة و سائر الذنوب فإنها مركب الشيطان و منها يدخل على الإنسان

(إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ)فنجاه من نفسه الأمارة حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها منقادة لداعى الهدى متعاصية عن داعى الردى فذلك ليس من النفس بل من فضل الله و رحمته بعبده.

(إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ)لمن تجرأ على الذنوب و المعاصى إذا تاب و أناب

(رَّحِيمٞ)بقبول توبته و توفيقه للأعمال الصالحة.

و هذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف فإن السياق فى كلامها و يوسف إذ ذاك فى السجن لم يحضر.فلما تحقق الملك و الناس براءة يوسف التامة أرسل إليه الملك53

(وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ)أجعله خصيصة لى و مقربا لدىَّ فأتوه به مكرما محترما

مكافاة الملك و حضور اخوته و حيلته لأخذ اخيه 54-82

(فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ)أعجبه كلامه و زاد موقعه عنده

فقال له:-(قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا)عندنا(مَكِينٌ)متمكن(أَمِينٞ)على الأسرار54

فـ(قَالَ)يوسف طلبا للمصلحة العامة:-

(اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الْأَرْضِ)خزائن جبايات أرض مصر و غلالها وكيلا حافظا مدبرا.

(إِنِّي حَفِيظٌ)لِمَا اسْتَوْدَعَتْنِي-حفيظ للذى أتولاه فلا يضيع منه شيء فى غير محله و ضابط للداخل و الخارج

(عَلِيمٌ)بِسِنِي الجَدْب-عليم بكيفية التدبير و الإعطاء و المنع و التصرف فى جميع أنواع التصرفات

*و ليس ذلك حرصا من يوسف على الولاية و إنما هو رغبة منه فى النفع العام

*و قد عرف من نفسه من الكفاءة و الأمانة و الحفظ ما لم يكونوا يعرفونه.

فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض فجعله الملك على خزائن الأرض و ولاه إياها.

*مَدَحَ نَفْسَهُ وَ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ ذَلِكَ [إِذَا جُهِلَ أَمْرُهُ] لِلْحَاجَةِ

من الفوائد:-

أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما فى نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل إذا كان فى ذلك مصلحة

و لم يقصد به العبد الرياء و سلم من الكذب لقول يوسف:-(اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

و كذلك لا تذم الولاية إذا كان المتولى فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله و حقوق عباده

و أنه لا بأس بطلبها إذا كان أعظم كفاءة من غيره

و إنما الذى يذم إذا لم يكن فيه كفاية أو كان موجودا غيره مثله أو أعلى منه أو لم يرد بها إقامة أمر الله

فبهذه الأمور ينهى عن طلبها و التعرض لها55

قال تعالى:-(وَكَذَٰلِكَ)أى:بهذه الأسباب و المقدمات المذكورة

(مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ)فى عيش رغد و نعمة واسعة و جاه عريض

(نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ)

أى: هذا من رحمة الله بيوسف التى أصابه بها و قدرها له و ليست مقصورة على نعمة الدنيا.

(وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)و يوسف ﷺمن سادات المحسنين فله فى الدنيا حسنة و فى الآخرة حسنة56

و لهذا قال:-(وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ)من أجر الدنيا

(لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ)لمن جمع بين التقوى و الإيمان فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب

و صغائرها و بالإيمان التام يحصل تصديق القلب بما أمر الله بالتصديق به و تتبعه أعمال القلوب و أعمال

الجوارح من الواجبات و المستحبات.

*يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مَا ادَّخَرَهُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ يُوسُفَﷺفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وَ أَكْثَرُ وَ أَجَلُّ مِمَّا خَوَّلَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَ النُّفُوذِ فِي الدُّنْيَا كَمَا قَالَ فِي حَقِّ سُلَيْمَانَ:-

{هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ39 وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}[ص]

*لما تولى يوسف ﷺ خزائن الأرض دبرها أحسن تدبير فزرع فى أرض مصر جميعها فى السنين الخصبة زروعا هائلة و اتخذ لها المحلات الكبار و جبا من الأطعمة شيئا كثيرا و حفظه و ضبطه ضبطا تاما

*فلما دخلت السنون المجدبة و سرى الجدب حتى وصل إلى فلسطين التى يقيم فيها يعقوب و بنوه

فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر57

(وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ)لم يعرفوه.

(وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ)

كال لهم كما كان يكيل لغيرهم و كان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير و كان قد سألهم عن حالهم فأخبروه أن لهم أخا عند أبيه و هو بنيامين.

فــــــ(قَالَ) لهم: (ٱئۡتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ)

ثم رغبهم فى الإتيان به فقال:-(أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ)فى الضيافة و الإكرام59

من الفوائد:-

مشروعية الضيافة و أنها من سنن المرسلين وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته

(أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

ثم رهبهم بعدم الإتيان به فقال:-(فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ)

و ذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه و أن ذلك يحملهم على الإتيان به60

فــــــ(قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ)

دل هذا على أن يعقوب ﷺ كان مولعا به لا يصبر عنه و كان يتسلى به بعد يوسف فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم(وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ)لما أمرتنا به61

(وَقَالَ)يوسف(لِفِتۡيَٰنِهِ)الذين فى خدمته:-

(ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ)الثمن الذى اشتروا به من المِيرَة(فِي رِحَالِهِمۡ)أمتعتهم سرًا

(لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ)إذا رأوها بعد ذلك فى رحالهم

(إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ)رجعوا(إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ)و يقدِّروا إكرامنا لهم ليرجعوا طمعًا فى عطائنا و لأجل التحرج من أخذها على ما قيل و الظاهر أنه أراد أن يرغبهم فى إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلا وافيا ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها و لا يشعرون لما يأتى

فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن62

(فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ)إن لم ترسل معنا أخانا

(فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ)نزداد مكيالا ليكون ذلك سببا لكيلنا ثم التزموا له بحفظه

(ليس "نكتل" اسم لأخي يوسف)

فقالوا:-(وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ)من أن يعرض له ما يكره63

من الفوائد:-

1–أن جباية الأرزاق–إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم–لا بأس بها لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق و الأطعمة في السنين المخصبات للاستعداد للسنين المجدبة و أن هذا غير مناقض للتوكل على الله بل يتوكل العبد على الله و يعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه و دنياه.

2–حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض حتى كثرت عندهم الغلات جدا حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها لعلمهم بوفورها فيها و حتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا
وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ
حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ
إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم
مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ
قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

(قَالَ)لهم يعقوب ﷺ(هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ)

أي: تقدم منكم التزام أكثر من هذا فى حفظ يوسف و مع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد فلا أثق بالتزامكم و حفظكم و إنما أثق بالله تعالى.

(فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ)بِي وَ سَيَرْحَمُ كِبَرِى وَ ضَعْفِى وَ وَجْدِى بِوَلَدِى وَ أَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيَّ وَ يَجْمَعَ شَمْلى بِهِ إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

أى: يعلم حالى و أرجو أن يرحمنى فيحفظه و يرده عليَّ و كأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم64

ثم إنهم (وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ)

هذا دليل على أنه قد كان معلوما عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد و أنه أراد أن يملكهم إياها.

فـــــــ(قَالُوا۟)لأبيهم–ترغيبا فى إرسال أخيهم معهم–:

(يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى)نطلب بعد هذا الإكرام الجميل حيث وفَّى لنا الكيل(ليس من البغى و العدوان)

(هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا)و رد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن المتضمن للإخلاص و مكارم الأخلاق؟

(وَنَمِيرُ)لنجلب طعامًا وفيرًا

لـــ(أَهْلَنَا)إذا ذهبنا بأخينا صار سببا لكيله لنا فمرنا أهلنا و أتينا لهم بما هم مضطرون إليه من القوت

(وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ)بإرساله معنا فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير

(ذَٰلِكَ كَيْلٞ يَسِيرٞ)عليه أى:–سهل لا ينالك ضرر لأن المدة لا تطول و المصلحة قد تبينت65

فـــــــ(قَالَ)لهم يعقوبﷺ:–(لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا)عهدا ثقيلا مؤكد بالحلف(مِّنَ ٱللَّهِ)

(لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ)أى: إلا أن يأتيكم أمر لا قبل لكم به و لا تقدرون دفعه

(فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ)على ما قال و أراد

(قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ)أى:–تكفينا شهادته علينا و حفظه و كفالته66

(وَقَالَ يَٰبَنِيَّ)ثم لما أرسله معهم وصاهم إذا هم قدموا مصر

أن(لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ)

و ذلك أنه خاف عليهم العين لكثرتهم و بهاء منظرهم وَ هَيْئَتِهِم الحَسَنَةِ لكونهم أبناء رجل واحد و هذا سبب

*فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ تَسْتَنْزِلُ الْفَارِسَ عَنْ فَرَسِهِ كما فى الحديث:-

الجامع الصغير و زيادته 7593–عَن أبي ذر ﷺقال النبيﷺالْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَ تُدْخِلُ الجَمَلَ الْقِدْرَ

(وَ)إلا(وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ)فالمقدر لا بد أن يكون

(إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ)القضاء قضاؤه و الأمر أمره فما قضاه و حكم به لا بد أن يقع

(عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ)اعتمدت على الله لا على ما وصيتكم به من السبب

(وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ)فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب و يندفع كل مرهوب

من الفوائد:–

استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع بل جائز

و إن كان لا يقع شيء إلا بقضاء و قدر فإن الأسباب أيضا من القضاء و القدر لأمر يعقوب حيث قال لبنيه:–

(يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ)67

(وَلَمَّا)ذهبوا و(دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ)ذلك الفعل

(يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ)

و إنى إذ أوصيكم بهذا لا أدفع عنكم شيئًا قضاه الله عليكم

*و هو موجب الشفقة و المحبة للأولاد فحصل له في ذلك نوع طمأنينة و قضاء لما في خاطره.و ليس هذا قصورا فى علمه فإنه من الرسل الكرام و العلماء الربانيين

و لهذا قال عنه:–(وَإِنَّهُۥ لَذُو)لصاحب(عِلۡمٖ)عظيم

(لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ)لتعليمنا إياه لا بحوله و قوته أدركه بل بفضل الله و تعليمه

(وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ)عواقب الأمور و دقائق الأشياء

و كذلك أهل العلم منهم يخفى عليهم من العلم و أحكامه و لوازمه شيء كثير68

(وَلَمَّا دَخَلُواْ)لما دخل إخوة يوسف(عَلَىٰ يُوسُفَ)

(ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ)

شقيقه و هو «بنيامين»الذى أمرهم بالإتيان به و ضمه إليه و اختصه من بين إخوته و أخبره بحقيقة الحال

و (قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ)تحزن

(بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)

فإن العاقبة خير لنا ثم خبره بما يريد أن يصنع و يتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهى الأمر٦٩

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾
قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ
وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾
قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ
كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ
فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾
قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

(فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ)أى: كال لكل واحد من إخوته و من جملتهم أخوه هذا.

(جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ)الإناء الذى يشرب به و يكال فيه

(فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ)أوعوا متاعهم فلما انطلقوا ذاهبين

(أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ)و لعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال**70**

(قَالُوا۟)أى:إخوة يوسف

(وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم)لإبعاد التهمة

فإن السارق ليس له همٌّ إلا البعد و الانطلاق عمن سرق منه لتسلم له سرقته

و هؤلاء جاءوا مقبلين إليهم ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة التى رموا بها عنهم فقالوا فى هذه الحال:–

(مَّاذَا تَفْقِدُونَ)و لم يقولوا:–«ما الذى سرقنا »لجزمهم بأنهم براء من السرقة**71**

(قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ)صَاعَهُ الَّذِى يَكِيلُ بِهِ

(وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ)أجرة له على وجدانه

(وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ)كفيل و هذا يقوله المؤذن المتفقد**72**

(قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ)بجميع أنواع المعاصى

(وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ)فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد فى الأرض

و إنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين و لا سارقين لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم و ورعهم و أن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم و هذا أبلغ فى نفى التهمة من أن لو قالوا:

« تاالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق » 73

(قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ)أى: جزاء هذا الفعل

(إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ)بأن كان معكم؟74

(قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ)أى:–الموجود فى رحله

(جَزَٰٓؤُهُۥۚ)بأن يتملكه صاحب السرقة

*و كان هذا فى دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكا لصاحب المال المسروق و لهذا قالوا:–

(كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ)75

(فَبَدَأَ)المفتش

(بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ)و ذلك لتزول الريبة التى يظن أنها فعلت بالقصد فلما لم يجد فى أوعيتهم شيئا

(ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ)و لم يقل «وجدها أو سرقها أخوه» مراعاة للحقيقة الواقعة.

فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده على وجه لا يشعر به إخوته قال تعالى:–

(كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ)يسرنا له هذا الكيد الذى توصل به إلى أمر غير مذموم

*وَ هَذَا مِنَ الْكَيْدِ الْمَحْبُوبِ الْمُرَادِ الَّذِى يُحِبُّهُ اللَّهُ وَ يَرْضَاهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ الْمَصْلَحَةِ الْمَطْلُوبَةِ.

(مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ)

لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق و إنما له عندهم جزاء آخر

فلو ردت الحكومة إلى دين الملك لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده و لكنه جعل الحكم منهم ليتم له ما أراد.

(نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ)بالعلم النافع و معرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها كما رفعنا درجات يوسف

*كَمَا قَالَ{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[الْمُجَادَلَة: 11]

(وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ)فكل عالم فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهى العلم إلى عالم الغيب و الشهادة76

من الفوائد:-

جواز استعمال المكايد التى يتوصل بها إلى الحقوق و أن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد و إنما الممنوع التحيل على إسقاط واجب أو فعل محرم.

*فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا (قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ)هذا الأخف ليس هذا غريبا منه.

(فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ)يعنون: يوسف عليه السلام

و مقصودهم تبرئة أنفسهم و أن هذا و أخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة و هما ليسا شقيقين لنا.

و فى هذا من الغض عليهما ما فيه

(فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ)

لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون بل كظم الغيظ و أسرَّ الأمر فى نفسه.

و(قَالَ)فى نفسه(أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ)حيث ذممتمونا بما أنتم على أشر منه

(وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)منا من وصفنا بالسرقة يعلم الله أنا براء منها 77

ثم سلكوا معه مسلك التملق لعله يسمح لهم بأخيهم.

فـــ(قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا)و إنه لا يصبر عنه و سيشق عليه فراقه

(فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)فأحسن إلينا و إلى أبينا بذلك78

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩
فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ
وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠
ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ
٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ
أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣
وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤
قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥
قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦

فـــــــ(قَالَ)يوسف(مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ)

أى:هذا ظلم منا لو أخذنا البرىء بذنب من وجدنا متاعنا عنده و لم يقل«من سرق»كل هذا تحرز من الكذب

(إِنَّآ إِذٗا)إن أخذنا غير من وجد في رحله(لَّظَٰلِمُونَ)حيث وضعنا العقوبة فى غير موضعها

من الفوائد:-

أنه ينبغى لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لا يحب أن يطلع عليه أن يستعمل المعاريض القولية و الفعلية المانعة له من الكذب كما فعل يوسف حيث ألقى الصُّواع فى رحل أخيه ثم استخرجها منه موهما أنه سارق

و ليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته و قال بعد ذلك:-(مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَ)

و لم يقل « من سرق متاعنا »و كذلك لم يقل « إنا وجدنا متاعنا عنده »

بل أتى بكلام عام يصلح له و لغيره و ليس فى ذلك محذور و إنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر و أنه يبقى عند أخيه و قد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبينت الحال٧٩

(فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ)فلما استيأس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم

(خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ)اجتمعوا وحدهم ليس معهم غيرهم و جعلوا يتناجون فيما بينهم

فـــــ(قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ)

فى حفظه و أنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم

(وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ)فاجتمع عليكم الأمـران:–

1–تفريطكم فى يوسف السابق

2–و عدم إتيانكم بأخيه باللاحق فليس لى وجه أواجه به أبى.

(فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ)سأقيم فى هذه الأرض و لا أزال بها

(حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ)فى مفارقتها

(أَوۡ يَحۡكُمَ)يقضى(ٱللَّهُ لِيۖ)بالخروج منها و أتمكن مِن أَخْذِ أخى–يقدر لى المجىء وحدى أو مع أخى

(وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ)و الله خيرُ مَن حَكَمَ و أعدل مَن فَصَلَ بين الناس﴿٨٠﴾

*ثم وصَّاهم بما يقولون لأبيهم فقال:–

(ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ)

أى:و أخذ بسرقته و لم يحصل لنا أن نأتيك به مع ما بذلنا من الجهد فى ذلك.

(وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا)

و الحال أنا ما شهدنا بشىء لم نعلمه و إنما شهدنا بما علمنا لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله

من الفوائد:–

أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه و تحققه إما بمشاهدة أو خبر من يثق به و تطمئن إليه النفس

لقولهم(وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا)

(وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ)

لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا و بذلنا المجهود فى ذهابه معنا و لما أعطيناك عهودنا و مواثيقنا فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ﴿٨١﴾

(وَسۡـَٔلِ)إن شككت فى قولنا(ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ)فقد اطلعوا على ما أخبرناك به

(وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ)لم نكذب و لم نغير و لم نبدل بل هذا الواقع.

فلما رجعوا إلى أبيهم و أخبروه بهذا الخبر اشتد حزنه و تضاعف كمده و اتهمهم أيضا فى هذه القضية كما اتهمهم فى الأولى﴿٨٢﴾

و (قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ)زَيَّنَت(لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ)الأمَّارة بالسوء

(أَمۡرٗاۖ)مكيدة دبَّرتموها كما فعلتم مِن قبل مع يوسف

(فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ)

استبصار أبيه و اجتماع يوسف بأسرته 83-101

ألجأ فى ذلك إلى الصبر الجميل الذى:-

لا يصحبه تسخط و لا جزع و لا شكوى للخلق

ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد و الكربة انتهت فقال:-

(عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ)أى:-يوسف و « بنيامين » و أخوهم الكبير الذى أقام فى مصر.

(إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ)الذى يعلم حالى و احتياجى إلى تفريجه و منّته و اضطرارى إلى إحسانه

(ٱلۡحَكِيمُ)الذى جعل لكل شيء قدرا و لكل أمر منتهى بحسب ما اقتضته حكمته الربانية(٨٣)

(وَتَوَلَّىٰ)يعقوب عليه السلام(عَنۡهُمۡ)أى:-عن أولاده بعد ما أخبروه هذا الخبر

(وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ)و اشتد به الأسف و الأسى

أى:ظهر منه ما كمن من الهم القديم و الشوق المقيم و ذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى المصيبة الأولى

(وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ)

الذى فى قلبه و الكمد الذى أوجب له كثرة البكاء حيث ابيضت عيناه من ذلك.

(فَهُوَ كَظِيمٞ)ممتلئ القلب من الحزن الشديد لكنه شديد الكتمان له لا يشكو أمره الى مخلوق

من الفوائد:-

هذه المحنة العظيمة التى امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلامحيث قضى بالتفريق بينه و بين ابنه يوسف الذى لا يقدر على فراقه ساعة واحدة و يحزنه ذلك أشد الحزن فحصل التفريق بينه و بينه مدة طويلة لا تقصر عن خمس عشرة سنة و يعقوب لم يفارق الحزن قلبه فى هذه المدة(وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ

ثم ازداد به الأمر شدة حين صار الفراق بينه و بين ابنه الثانى شقيق يوسف هذا و هو صابر لأمر الله محتسب الأجر من الله قد وعد من نفسه الصبر الجميل و لا شك أنه وفى بما وعد به و لا ينافى ذلك قوله:-

(إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)فإن الشكوى إلى الله لا تنافى الصبر و إنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين(٨٤)

(قَالُواْ)فقال له أولاده متعجبين من حاله:-

(تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ)لا تزال(تَذۡكُرُ يُوسُفَ)فى جميع أحوالك.

(حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا)فانيا لا حراك فيك و لا قدرة على الكلام.

(أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ)لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبدا(٨٥)

(قَالَ)يعقوب عليه السلام(إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي)(همى) ما أبث من الكلام

(وَحُزْنِيٓ)الذى فى قلبى

(إِلَى ٱللَّهِ)وحده لا إليكم و لا إلى غيركم من الخلق فقولوا ما شئتم

(وَأَعۡلَمُ مِنَ)رحمة(ٱللَّهِ)و فرجه

(مَا لَا تَعۡلَمُونَ)من أنه سيردهم على و يقر عينى بالاجتماع بهم﴿٨٦﴾

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ
إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ
فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ
إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ
إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا
وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ
﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾
وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾
قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

قال يعقوب عليه السلام لبنيه:-(يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ)احرصوا و اجتهدوا على التفتيش عنهما

*وَ التَّحَسُّسُ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَ التَّجَسُّسُ يُسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ.

(وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ)لا تقطعوا رجاءكم من رحمة الله

فإن الرجاء:- يوجب للعبد السعي و الاجتهاد فيما رجاه

و الإياس:- يوجب له التثاقل و التباطؤ

و أولى ما رجا العباد فضل الله و إحسانه و رحمته و روحه

(إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ)يقطع الرجاء(مِن رَّوۡحِ)رحمة(ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ)الجاحدون لقدرته الكافرون به.

*فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته و رحمته بعيدة منهم فلا تتشبهوا بالكافرين.

و دل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله و روحه87

فذهبوا إليه:-(فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ)أي:-على يوسف

(قَالُواْ)متضرعين إليه:-(يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ)قد اضطررنا نحن و أهلنا

من الفوائد:-

جواز إخبار الإنسان بما يجد و ما هو فيه من مرض أو فقر و نحوهما على غير وجه التسخط

لأن إخوة يوسف قالوا:-(يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ)و لم ينكر عليهم يوسف.

(وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ)مدفوعة مرغوب عنها لقلتها و عدم وقوعها الموقع
*وَ مَعَنَا ثَمَنُ الطَّعَامِ الَّذِى تَمْتَارُهُ وَ هُوَ ثَمَنٌ قَلِيلٌ.

(فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ) أَعْطِنَا بِهَذَا الثَّمَنِ الْقَلِيلِ مَا كُنْتَ تُعْطِينَا قَبْلَ ذَلِكَ

مع عدم وفاء العرض و تصدق علينا بالزيادة عن الواجب.

(وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ)قيل:بِرَدِّ أَخِينَا إِلَيْنَا-قيل: تَصَدَّقْ عَلَيْنَا بِقَبْضِ هَذِهِ الْبِضَاعَةِ الْمُزْجَاةِ وَ تَجَوَّزْ فِيهَا.

(إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ)بثواب الدنيا و الآخرة.

فلما انتهى الأمر و بلغ أشده رقَّ لهم يوسف رقَّة شديدة و عرَّفهم بنفسه و عاتبهم88

(قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ)

أما يوسف فظاهر فعلهم فيه و أما أخوه فلعله و الله أعلم قولهم:–(إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ)

أو أن الحادث الذى فرّق بينه و بين أبيه هم السبب فيه و الأصل الموجب له.

(إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ)

هذا نوع اعتذار لهم بجهلهم أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين مع أنه لا ينبغى و لا يليق منهم.
*إِنَّمَا حَمَلَكُمْ عَلَى هَذَا [الْجَهْلُ] بِمِقْدَارِ هَذَا الَّذِي ارْتَكَبْتُمُوهُ
كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:-كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ
وَ قَرَأَ:{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ}إِلَى قَوْلِهِ:-{إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النَّحْل: 119]
*وَ الظَّاهِرُ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ -أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام إِنَّمَا تَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ لَهُ فِي ذَلِكَ
كَمَا أَنَّهُ إِنَّمَا أَخْفَى مِنْهُمْ نَفْسَهُ فِي الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ فِي ذَلِكَ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ
وَ لَكِنْ لَمَّا ضَاقَ الْحَالُ وَ اشْتَدَّ الْأَمْرُ فَرَّجَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ الضِّيقِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا 5 إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشَّرْح] ٨٩

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا: (أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ)فعرفوا أن الذى خاطبهم هو يوسف
*إِنَّهُمْ تعجَّبوا مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ مِنْ سَنَتَيْنِ وَ أَكْثَرَ وَ هُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ وَ هُوَ مَعَ هَذَا يَعْرِفُهُمْ وَ يَكْتُمُ نَفْسَهُ فَلِهَذَا قَالُوا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِفْهَامِ:-

(قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ)بِجَمْعِهِ بَيْنَنَا بَعْدَ التَّفْرِقَةِ وَ بَعْدَ الْمُدَّةِ

(قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ)بالإيمان و التقوى و التمكين فى الدنيا و ذلك بسبب الصبر و التقوى

من الفوائد:–

فضيلة التقوى و الصبر و أن كل خير فى الدنيا و الآخرة

فمن آثار التقوى و الصبر و أن عاقبة أهلهما أحسن العواقب لقوله:

(قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ)فعل ما حرم الله(وَيَصۡبِرۡ)على الآلام و المصائب و على الأوامر بامتثالها

(فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)فإن هذا من الإحسان و الله لا يضيع أجر من أحسن عملا﴿٩٠﴾

(قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ)فضلك(عَلَيۡنَا)بـــــ:-

1-مكارم الأخلاق و محاسن الشيم و أسأنا إليك غاية الإساءة و حرصنا على إيصال الأذى إليك و التبعيد لك عن أبيك فآثرك الله تعالى و مكنك مما تريد

2-الْفَضْلِ وَ الْأَثْرَةِ عَلَيْهِمْ فِي الْخَلْقِ وَ الْخُلُقِ

3-وَ السَّعَةِ وَ الْمُلْك وَ التَّصَرُّف

4-وَ النُّبُوَّةِ أَيْضًا -عَلَى قَوْلِ مَنْ لَمْ يَجْعَلْهُمْ أَنْبِيَاءَ-وَ أَقَرُّوا لَهُ بِأَنَّهُمْ أَسَاءُوا إِلَيْهِ وَ أَخْطَئُوا فِي حَقِّهِ.

(وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ)و هذا غاية الاعتراف منهم بالجُرْمِ الحاصل منهم على يوسف﴿٩١﴾

فــــ(قَالَ) لهم يوسف عليه السلام كرما و جودا:-

(لَا تَثۡرِيبَ)لوم(عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ)

فسمح لهم سماحا تاما من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق و دعا لهم بالمغفرة و الرحمة و هذا نهاية الإحسان الذى لا يتأتى إلا من خواص الخلق و خيار المصطفين

من العبر:-

1-أن العبرة فى حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى فى أول الأمر مما هو أكبر أسباب النقص و اللوم ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح و السماح التام من يوسف و من أبيهم

و الدعاء لهم بالمغفرة و الرحمة و إذا سمح العبد عن حقه فالله خير الراحمين.

و لهذا-فى أصح الأقوال-أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى:-(وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ) و هم أولاد يعقوب الاثنا عشر و ذريتهم

و مما يدل على ذلك أن فى رؤيا يوسف أنه رآهم كواكب نيرة و الكواكب فيها النور و الهداية الذى من صفات الأنبياء فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة

2-ما منَّ الله به على يوسف عليه السلام من العلم و الحلم و مكارم الأخلاق و الدعوة إلى الله و إلى دينه و عفوه عن إخوته الخاطئين عفوا بادرهم به و تمم ذلك بأن لا يثرب عليهم و لا يعيرهم به.

ثم برُّه العظيم بأبويه و إحسانه لإخوته بل لعموم الخلق﴿٩٢﴾

قال يوسف عليه السلام لإخوته:-(ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا)

لأن كل داء يداوى بضده فهذا القميص–لما كان فيه أثر ريح يوسف الذى أودع قلب أبيه من الحزن و الشوق ما الله به عليم–أراد أن يشمه فترجع إليه روحه و تتراجع إليه نفسه و يرجع إليه بصره
و لله فى ذلك حكم و أسرار لا يطلع عليها العباد و قد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر.

(وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)

أولادكم و عشيرتكم و توابعكم كلهم ليحصل تمام اللقاء و يزول عنكم نكد المعيشة و ضنك الرزق﴿٩٣﴾

(وَلَمَّا فَصَلَتِ)خرجت(ٱلْعِيرُ)من مصر مقبلة إلى أرض فلسطين شمَّ يعقوب ريح القميص

فـــــ(قَالَ أَبُوهُمْ)يعقوب عليه السلام لمن بقى عنده من بنيه

(إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ)تسفهون و تسخرون منى و تزعمون أن هذا الكلام صدر منى من غير شعور لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول﴿٩٤﴾فوقع ما ظنه بهم:–

فـ(قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ)خطئك(ٱلْقَدِيمِ)لا تزال تائها في بحر الحبّ لا تدرى ما تقول
*قَالُوا لِوَالِدِهِمْ كَلِمَةً غَلِيظَةً لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِى لَهُمْ أَنْ يَقُولُوهَا لِوَالِدِهِمْ وَ لَا لِنَبِيِّ اللّٰهِ ﷺ﴿٩٥﴾

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ
﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ
قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ
بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ
وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ
تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ
إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

(فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ)من يُبشِّر يعقوب بأن يوسف حيٌّ بقرب الاجتماع بيوسف و إخوته و أبيهم

(أَلۡقَىٰهُ)أى:القميص(عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ)رجع على حاله الأولى(بَصِيرٗاۖ)بعد أن ابيضت عيناه من الحزن

فقال لمن حضره من أولاده و أهله الذين كانوا يفندون رأيه و يتعجبون منه منتصرا عليهم متبجحا بنعمة الله عليه:ـ

(قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ)

حيث كنت مترجيا للقاء يوسف مترقبا لزوال الهم و الغم و الحزن96

فأقروا بذنبهم و نجعوا بذلك و (قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ)حيث فعلنا معك ما فعلنا97

فــــ(قَالَ)مجيبا لطلبتهم و مسرعا لإجابتهم:ـ

(سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)

أى: و رجائى به أن يغفر لكم و يرحمكم و يتغمدكم برحمته

و قد قيل: إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل ليكون أتمَّ للاستغفار و أقرب للإجابة98

(فَلَمَّا)تجهز يعقوب و أولاده و أهلهم أجمعون و ارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف فى مصر و سكناها فلما وصلوا إليه

و (دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ)ضمَّ

(إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ)و اختصهما بقربه و أبدى لهما من البر و الإكرام و التبجيل و الإعظام شيئا عظيما

(وَقَالَ)لجميع أهله:–(ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ)

من جميع المكاره و المخاوف فدخلوا في هذه الحال السارة و زال عنهم النصب و نكد المعيشة و حصل السرور و البهجة99

(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ)سرير الملك و مجلس العزيز

(وَخَرُّوا۟)أي:–أبوه و أمه و إخوته(لَهُۥ سُجَّدًا)سجودا على وجه التعظيم و التبجيل و الإكرام

*وَ قَدْ كَانَ هَذَا سَائِغًا فِي شَرَائِعِهِمْ إِذَا سلَّموا عَلَى الْكَبِيرِ يَسْجُدُونَ لَهُ وَ لَمْ يَزَلْ هَذَا جَائِزًا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى شَرِيعَةِ عِيسَىعليه السلامفَحُرِّمَ هَذَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ و جُعل السُّجُودُ مُخْتَصًّا بِجَنَابِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى.

*الترمذى 1159 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهعَنْ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:

«لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»

*وَ الْغَرَضُ أَنَّ هَذَا كَانَ جَائِزًا فِي شَرِيعَتِهِمْ وَ لِهَذَا خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا

(وَقَالَ)لما رأى هذه الحال و رأى سجودهم له:–

(يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ)

حين رأى أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر له ساجدين فهذا وقوعها الذى آلت إليه و وصلت

*أَيْ: هَذَا مَا آلَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ فَإِنَّ التَّأْوِيلَ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ} [الأعراف: 53]أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْتِيهِمْ مَا وُعِدُوا مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ.

(قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا)صَحِيحَةً صِدْقا يَذْكُرُ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فلم يجعلها أضغاث أحلام.

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ)إحسانا جسيما

(إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ)البادية

*و هذا من لطفه و حسن خطابه عليه السلام حيث ذكر حاله فى السجن و لم يذكر حاله في الجب لتمام عفوه عن إخوته و أنه لا يذكر ذلك الذنب و أن إتيانكم من البادية من إحسان الله إليَّ.

فلم يقل: جاء بكم من الجوع و النصب و لا قال: « أحسن بكم »

بل قال (وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ)

جعل الإحسان عائدا إليه فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده و يهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب

من الفوائد:-

ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة و فقر و سوء حال أن يعترف بنعمة الله عليه

و أن لا يزال ذاكرا حاله الأولى ليحدث لذلك شكرا كلما ذكرها لقول يوسف عليه السلام:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ)

(مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ)

فلم يقل «نزغ الشيطان إخوتى» بل كأن الذنب و الجهل صدر من الطرفين

فالحمد لله الذى أخزى الشيطان و دحره و جمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة.

(إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ)

يوصل بره و إحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر و يوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها

(إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ)الذى يعلم ظواهر الأمور و بواطنها و سرائر العباد و ضمائرهم

(ٱلۡحَكِيمُ)فى وضعه الأشياء مواضعها و سوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها100

*لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين فى الأرض و الملك و أقر عينه بأبويه و إخوته و بعد العلم العظيم الذى أعطاه الله إياه قال مقرا بنعمة الله شاكرا لها داعيا بالثبات على الإسلام:-

(رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ)و ذلك أنه كان على خزائن الأرض و تدبيرها و وزيرا كبيرا للملك

(وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ)أحاديث الكتب المنزلة و تأويل الرؤيا و غير ذلك من العلم

من الفوائد:-

ينبغى للعبد أن يتملق إلى الله دائما فى تثبيت إيمانه و يعمل الأسباب الموجبة لذلك و يسأل الله حسن الخاتمة و تمام النعمة لقول يوسف:-(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

(فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا)

أي: أَدِمْ عليّ الإسلام و ثبتنى عليه حتى توفانى عليه و لم يكن هذا دعاء باستعجال الموت

(وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ)من الأنبياء الأبرار و الأصفياء الأخيار﴿١٠١﴾

قصة يوسف دليل على نبوة محمد 102-104

*لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له:-

(ذَٰلِكَ)الإنباء الذى أخبرناك به

(مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ)

للعبرة و الاتعاظ لمن خالفك الذى لولا إيحاؤنا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل

(وَمَا كُنتَ)فإنك لم تكن حاضرا(لَدَيۡهِمۡ)

(إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ)أى:–إخوة يوسف(أَمۡرَهُمۡ)على إلقائه فى الجب

(وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ)به حين تعاقدوا على التفريق بينه و بين أبيه فى حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى و لا يمكن أحدا أن يصل إلى علمها إلا بتعليم الله له إياها.

كما قال تعالى لما قص قصة موسى و ما جرى له ذكر الحال التى لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه

وَ قَالَ تَعَالَى:{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [الْقَصَصِ: 44]

*فهذا أدل دليل على أن ما جاء به رسول الله حقا.

*وَ لَكِنَّا أَعْلَمْنَاكَ بِهِ وَحْيًا إِلَيْكَ وَ إِنْزَالًا عَلَيْكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آلِ عِمْرَانَ: 44]

إِلَى أَنْ قَالَ:{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} [الْقَصَصِ: 46]

وَ قَالَ{وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} [الْقَصَصِ: 45]

وَقَالَ {مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ69 إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [ص]

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ:–(وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ)على إيمانهم

(بِمُؤۡمِنِينَ)فإن مداركهم و مقاصدهم قد أصبحت فاسدة فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم و لو عدمت الموانع بأن كانوا يعلمونهم و يدعونهم إلى ما فيه الخير لهم و دفع الشر عنهم من غير أجر و لا عوض و لو أقاموا لهم من الشواهد و الآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا.

*وَ قَالَ {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأَنْعَامِ: 116] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ﴿١٠٣﴾

و لهذا قال:-

وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾
أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾
قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا
يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

(وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ)يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه و ما يضرهم ليتركوه104

(وَكَأَيِّن) كم(مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا)دالة لهم على توحيد الله

(وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)و مع هذا إن وجد منهم بعض الإيمان

(وَمَا)فلا(يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ)

فهم و إن أقروا بربوبية الله تعالى و أنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور فإنهم يشركون في ألوهية الله و توحيده فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب و يفجأهم العقاب وهم آمنون

*قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:-مِنْ إِيمَانِهِمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ:-مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ؟وَ مَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ وَ مَنْ خَلَقَ الْجِبَالِ؟
قَالُوا:-"اللَّهُ" وَ هُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ.
*مسلم (1185) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا
قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-
«وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ»(كفاكم هذا الكلام فاقتصروا عليه ولا تزيدوا)فَيَقُولُونَ:-
إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَ مَا مَلَكَ يَقُولُونَ هَذَا وَ هُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ
*وَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:-{إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لُقْمَان: 13] وَ هَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْأَعْظَمُ الَّذِى يَعْبُدُ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ
كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ. عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟
قَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَ هُوَ خَلَقَكَ".
*وَ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: -{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}

قَالَ: ذَلِكَ الْمُنَافِقُ يَعْمَلُ إِذَا عَمِلَ رِيَاءَ النَّاسِ وَ هُوَ مُشْرِكٌ بِعَمَلِهِ ذَاكَ يَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلًا} [النِّسَاء: 142]

*مسلم (2985)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:-
أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَ شِرْكَهُ "

*أحمد 23630 عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ
قَالَ: " إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ " قَالُوا: وَ مَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟
قَالَ: " الرِّيَاءُ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:-إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ:-
اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً 105

و لهذا قال:-(أَفَأَمِنُوٓاْ)أى:-لفاعلون لتلك الأفعال المعرضون عن آيات الله

(أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ)أى: عذاب يغشاهم و يعمهم و يستأصلهم

(أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً)فجأة

(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)أى: فإنهم قد استوجبوا لذلك فليتوبوا إلى الله و يتركوا ما يكون سببا في عقابهم.

*كَمَا قَالَ{أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ 45
أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ 46 أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [النَّحْلِ]
وَ قَالَ تَعَالَى:{أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ 97 أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ
98 أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأَعْرَاف] 107

*يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ:-(قُلْ)للناس(هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ)طريقي التى أدعو إليها و هى:-
السبيل الموصلة إلى الله و إلى دار كرامته المتضمنة للعلم بالحق والعمل به و إيثاره و إخلاص الدين لله وحده

(أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ)أى:-أحثُّ الخلق و العباد إلى الوصول إلى ربهم و أرغِّبهم فى ذلك و أرهِّبهم مما يبعدهم عنه.

و مع هذا فأنا (عَلَىٰ بَصِيرَةٍ)من دينى أى: على علم و يقين من غير شك و لا امتراء و لا مرية

(أَنَا وَ)كذلك(وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى)يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره.

(وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ)عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله أو ينافى كماله.
*وَ أُنَزِّهُ اللَّهَ وَ أُجِلُّهُ وَ أُعَظِّمُهُ وَ أُقَدِّسُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ عَدِيلٌ أَوْ نَدِيدٌ أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ
أَوْ صَاحِبَةٌ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ مُشِيرٌ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى وَ تَقَدَّسَ وَ تَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عُلُوًّا كَبِيرًا
{تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإِسْرَاء: 44]

(وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ)فى جميع أمورى بل أعبد الله مخلصا له الدين١٠٨

ثم قال تعالي:–(وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا)

أي: لم نرسل ملائكة و لا غيرهم من أصناف الخلق فلأى شيء يستغرب قومك رسالتك و يزعمون أنه ليس لك عليهم فضل فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة

*يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا أرسلَ رسُلَه مِنَ الرِّجَالِ لَا مِنَ النِّسَاءِ.

وَ هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:-

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُوحِ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنَاتِ بَنِى آدَمَ وَحى تَشْرِيع.

وَ إِنَّمَا فِيهِنَّ صِدِّيقَاتٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَشْرَفِهِنَّ مريمَ بِنْتِ عِمْرَانَ حَيْثُ قَالَ:-

{مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ}[الْمَائِدَة: 75]

فَوَصَفَهَا فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهَا بِالصِّدِّيقيةِ فَلَوْ كَانَتْ نَبِيَّةً لَذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَقَامِ التَّشْرِيفِ وَ الْإِعْظَامِ فَهِىَ صِدِّيقَةٌ بِنَصِّ الْقُرْآنِ.

(نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ)

لا من البادية بل من أهل القرى الذين هم أكمل عقولا و أصح آراء و ليتبين أمرهم و يتضح شأنهم.

*لَا أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِى الَّذِينَ هُمْ أَجْفَى النَّاسِ طِبَاعًا وَ أَخْلَاقًا.

وَ هَذَا هُوَ الْمَعْهُودُ الْمَعْرُوفُ أَنَّ أَهْلَ الْمُدُنِ أَرَقُّ طِبَاعًا وَ أَلْطَفُ مِنْ أَهْلِ سَوَادِهِمْ

وَ أَهْلُ الرِّيفِ وَ السَّوَادِ أَقْرَبُ حَالًا مِنَ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ فِي الْبَوَادِى

وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ}[التَّوْبَة: 97]

*أحمد 7363 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ الدَّوْسِيِّ قَالَ: فَأَهْدَى لَهُ نَاقَةً يَعْنِى قَوْلَهُ قَالَ:-

" لَا أَتَّهِبُ إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ "

(أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ)إذا لم يصدقوا لقولك

(فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ)كيف أهلكهم الله بتكذيبهم

فاحذروا أن تقيموا على ما أقاموا عليه فيصيبكم ما أصابهم

(وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ)أى:–الجنة و ما فيها من النعيم المقيم

(خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ)الله فى امتثال أوامره و اجتناب نواهيه

فإن نعيم الدنيا منغص منكد منقطع و نعيم الآخرة تام كامل لا يفنى أبدا بل هو على الدوام فى تزايد و تواصل

(عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

(أَفَلَا تَعۡقِلُونَ)أى:أفلا تكون لكم عقول تؤثر الذى هو خير على الأدنى.

*وَ كَمَا أَنْجَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ كَتَبْنَا لَهُمُ النَّجَاةَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَيْضًا وَ هِىَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بِكَثِيرٍ كَمَا قَالَ:-

{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ 51 مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}[غَافِر] ١٠٩

(حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ)ييئس(ٱلرُّسُلُ)من قومهم

(وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ)و أيقنوا أن قومهم (قَدۡ كُذِبُواْ)كذبوهم و لا أمل فى إيمانهم

يخبر تعالى: أنه يرسل الرسل الكرام فيكذبهم القوم المجرمون اللئام و أن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق

و لا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل.

*حتى إن الرسل – على كمال يقينهم و شدة تصديقهم بوعد الله و وعيده –ربما:–

أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياسو نوع من ضعف العلم و التصديق

*كَمَا فِي قَوْلِهِ{وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [الْبَقَرَةِ: 214]

فإذا بلغ الأمر هذه الحال:–

(جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا)عند شدة الكرب

(فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ)و هم الرسل و أتباعهم

(وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا)عذابنا(عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ)عمن اجترم و تجرأ على الله (فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ)

*البخارى4695 عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ لَهُ و هُوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ} [يوسف: 110]
قَالَ: قُلْتُ: أَكُذِبُوا أَمْ كُذِّبُوا؟قَالَتْ عَائِشَةُ: «كُذِّبُوا»
قُلْتُ: فَقَدِ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ؟ قَالَتْ: «أَجَلْ لَعَمْرِي لَقَدِ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ»
فَقُلْتُ لَهَا:-وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا قَالَتْ:-«مَعَاذَ اللَّهِ لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا»
قُلْتُ: فَمَا هَذِهِ الآيَةُ؟ قَالَتْ: «هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ صَدَّقُوهُمْ فَطَالَ عَلَيْهِمُ البَلاَءُ وَ اسْتَأْخَرَ عَنْهُمُ النَّصْرُ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَ ظَنَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ»
*البخارى 4696-عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ:-أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ فَقُلْتُ لَعَلَّهَا كُذِبُوا مُخَفَّفَةً قَالَتْ: «مَعَاذَ اللَّهِ» نَحْوَهُ
*البخارى4524-عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} [يوسف: 110]
خَفِيفَةً ذَهَبَ بِهَا هُنَاكَ وَ تَلاَ:-{حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: 214]
فَلَقِيتُ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ
4525 - عن عَائِشَةَ:«مَعَاذَ اللَّهِ وَ اللَّهِ مَا وَعَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا عَلِمَ أَنَّهُ كَائِنٌ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَ لَكِنْ لَمْ يَزَلِ البَلاَءُ بِالرُّسُلِ حَتَّى خَافُوا أَنْ يَكُونَ مَنْ مَعَهُمْ يُكَذِّبُونَهُمْ»
فَكَانَتْ تَقْرَؤُهَا: (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا)

*الطبرى 20026 عن أبي الضحى عن مسروق أن رجلا سأل عبد الله بن مسعود:

(حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا)قال: هو الذى تكره = مخففةً ١١٠

من حكم القصص القرآنى111

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ)أى:–قصص الأنبياء و الرسل مع قومهم

(عِبْرَةٌ)عظة يعتبرون بها(لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ)أهل الخير و أهل الشر

و أن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة و يعتبرون بها أيضا ما لله من صفات الكمال و الحكمة العظيمة و أنه الله الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له.

(مَا كَانَ)هذا القرآن الذى قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص

(حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ)مكذوبًا مختلَقًا

(وَلَٰكِن)كان(تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ)من الكتب السابقة الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ يوافقها و يشهد لها بالصحة وَ هُوَ يُصَدِّقُ مَا فِيهَا مِنَ الصَّحِيحِ وَ يَنْفِى مَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ تَحْرِيفٍ وَ تَبْدِيلٍ وَ تَغْيِيرٍ وَ يَحْكُمُ عَلَيْهَا بِالنَّسَخِ أَوِ التَّقْرِيرِ

(وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ)يحتاج إليه العباد من أصول الدين و فروعه و من الأدلة و البراهين.

*مِنْ تَحْلِيلٍ وَ تَحْرِيمٍ وَ مَحْبُوبٍ وَ مَكْرُوهٍ وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرِ بِالطَّاعَاتِ وَ الْوَاجِبَاتِ وَ الْمُسْتَحَبَّاتِ وَ النَّهْىِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ وَ مَا شَاكَلَهَا مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ وَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْأُمُورِ عَلَى الْجَلِيَّةِ وَ عَنِ الْغُيُوبِ الْمُسْتَقْبَلَةِ الْمُجْمَلَةِ وَ التَّفْصِيلِيَّةِ وَ الْإِخْبَارِ عَنِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْأَسْمَاءِ وَ الصِّفَاتِ وَ تَنْزِيهِهِ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ فَلِهَذَا كَانَ:-

(وَهُدًى)فإنهم–بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق و إيثاره–يحصل لهم الهدى

(وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)و بما يحصل لهم من الثواب العاجل و الآجل تحصل لهم الرحمة.

*تَهْتَدِى بِهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْغَيِّ إِلَى الرَّشَادِ وَ مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى السَّدَادِوَ يَبْتَغُونَ بِهِ الرَّحْمَةَ مِنْ رَبِّ الْعِبَادِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْمَعَادِ. فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ يَوْمَ يَفُوزُ بِالرِّبْحِ الْمُبْيَضَّة وُجُوهُهُمُ النَّاضِرَةُ وَ يَرْجِعُ المسودَّة وجوهُهم بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ ١١١

فصل:–فى ذكر شىء من العبر و الفوائد التى اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التى قال الله فى أولها

1–ما عليه يوسف عليه السلام من الجمال الظاهر و الباطن فإن جماله الظاهر:–

أوجب للمرأة التي هو فى بيتها ما أوجب و للنساء اللاتى جمعتهن حين لمنها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ)

و أما جماله الباطن:–فهو العفة العظيمة عن المعصية مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها و شهادة امرأة العزيز و النسوة بعد ذلك ببراءته و لهذا قالت امرأة العزيز:–(وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)

و قالت بعد ذلك:–(الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)

و قالت النسوة:-(حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ)

2-أن العلم و العقل يدعوان صاحبهما إلى الخير و ينهيانه عن الشر و أن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس و إن كان معصية ضارا لصاحبه.

3-أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع و لا محرم

فإن يعقوب قال لأولاده بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة ثم قال لهم بعد ما أتوه و زعموا أن الذئب أكله (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا) و قال لهم في الأخ الآخر:

(هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ)

ثم لما احتبسه يوسف عنده و جاء إخوته لأبيهم قال لهم:-(بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا)

فهم فى الأخيرة-و إن لم يكونوا مفرطين-فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم عليه و لا حرج.

4-أن الفرج مع الكرب و أن مع العسر يسرا فإنه لما طال الحزن على يعقوب و اشتد به إلى أنهى ما يكون ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب و مسهم الضر أذن الله حينئذ بالفرج فحصل التلاقى فى أشد الأوقات إليه حاجة و اضطرارا فتم بذلك الأجر و حصل السرور

و علم من ذلك أن الله يبتلى أولياءه بالشدة و الرخاء و العسر و اليسر ليمتحن صبرهم و شكرهم و يزداد-بذلك-إيمانهم و يقينهم و عرفانهم.

5-لطف الله العظيم بيوسف حيث نقله فى تلك الأحوال و أوصل إليه الشدائد و المحن ليوصله بها إلى أعلى الغايات و رفيع الدرجات.

13-تفسير سورة الرعد-مدنية و قيل: مكية-بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ
يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ
وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾
وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ
وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾
۞وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

(الٓمٓرۚ)

(تِلۡكَ ءَايَٰتُ)هذا القرآن هو آيات(ٱلۡكِتَٰبِۗ)الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين و فروعه

(وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ)و أن الذى أنزل إلى الرسول من ربه هو(ٱلۡحَقُّ)المبين

لأن أخباره صدق و أوامره و نواهيه عدل مؤيدة بالأدلة و البراهين القاطعة فمن أقبل عليه و على علمه كان من أهل العلم بالحق الذى يوجب لهم علمهم العمل بما أحب الله.

(وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ)بهذا القرآن إما جهلا و إعراضا عنه و عدم اهتمام به و إما عنادا و ظلما

فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به لعدم السبب الموجب للانتفاع.

حقيقة القرآن و أدلة على قدرة الله 1-4

*كَقَوْلِهِ: {وَمَا أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ}[يُوسُف: 103]أَيْ:

مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَ الْجَلَاءِ وَ الْوُضُوحِ لَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ لِمَا فِيهِمْ مِنَ الشِّقَاقِ وَ الْعِنَادِ وَ النِّفَاقِ 1

*يخبر تعالى عن انفراده بالخلق و التدبير و العظمة و السلطان الدال على أنه وحده المعبود الذى لا تنبغي العبادة إلا له فقال:–

(ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ)على عظمها و اتساعها بقدرته العظيمة

(بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ)أى:–ليس لها عمد من تحتها فإنه لو كان لها عمد لرأيتموها

(ثُمَّ)بعد ما خلق السماوات و الأرض

(ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ)العظيم الذى هو أعلى المخلوقات استواء يليق بجلاله و يناسب كماله.

(وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ)لمصالح العباد و مصالح مواشيهم و ثمارهم

(كُلّٞ)من الشمس و القمر

(يَجۡرِي)بتدبير العزيز العليم

(لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ)بسير منتظم لا يفتران و لا ينيان حتى يجيء الأجل المسمى و هو طى الله هذا العالم و نقلهم إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار

فعند ذلك يطوى الله السماوات و يبدلها و يغير الأرض و يبدلها. فتكور الشمس و القمر و يجمع بينهما فيلقيان في النار ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة فيتحسر بذلك أشد الحسرة و ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

*الْمُرَادُ أَنَّهُمَا يَجْرِيَانِ إِلَى انْقِطَاعِهِمَا بِقِيَامِ السَّاعَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ{وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [يس: 38]

(يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ)يوضح لكم(ٱلۡأٓيَٰتِ)الدالة على قدرته

*هذا جمع بين الخلق و الأمر أى: قد استوى الله العظيم على سرير الملك يدبر الأمور فى العالم العلوى و السفلى فيخلق و يرزق و يغنى و يفقر و يرفع أقواما و يضع آخرين و يعز و يذل و يخفض و يرفع و يقيل العثرات و يفرج الكربات و ينفذ الأقدار في أوقاتها التى سبق بها علمه و جرى بها قلمه و يرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره.

و ينزل الكتب الإلهية على رسله و يبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع و الأوامر و النواهى و يفصلها غاية التفصيل ببيانها و إيضاحها و تمييزها

(لَعَلَّكُم)بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية و الآيات القرآنية

(بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ)بالله و المعاد إليه فتصدقوا بوعده و وعيده و تُخْلصوا العبادة له وحده.

*فإن كثرة الأدلة و بيانها و وضوحها من أسباب حصول اليقين فى جميع الأمور الإلهية خصوصا فى العقائد الكبار كالبعث و النشور و الإخراج من القبور.

و أيضا فقد علم أن الله تعالى حكيم لا يخلق الخلق سدى و لا يتركهم عبثا فكما أنه أرسل رسله و أنزل كتبه لأمر العباد و نهيهم فلا بد أن ينقلهم إلى دار يحل فيها جزاؤه فيجازى المحسنين بأحسن الجزاء و يجازي المسيئين بإساءتهم ۝٢

(وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ)جعل الأرض متسعة ممتدة و هيأها لمعاشكم

*أى: خلقها للعباد و وسعها و بارك فيها و مهدها للعباد و أودع فيها من مصالحهم ما أودع

(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ)جبالا عظاما لئلا تميد بالخلق فإنه لولا الجبال لمادت بأهلها لأنها على تيار ماء لا ثبوت لها و لا استقرار إلا بالجبال الرواسى التى جعلها الله أوتادا لها.

(وَ) جعل فيها

(وَأَنْهَارًا)تسقى الآدميين و بهائمهم و حروثهم فأخرج بها من الأشجار و الزروع و الثمار خيرا كثيرا و لهذا قال:(وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)صنفين مما يحتاج إليه العباد.

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)فتظلم الآفاق فيسكن كل حيوان إلى مأواه و يستريحون من التعب و النصب في النهار ثم إذا قضوا مأربهم من النوم غشى النهار الليل فإذا هم مصبحون منتشرون في مصالحهم و أعمالهم فى النهار.

(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ)على المطالب الإلهية

(لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

فيها و ينظرون فيها نظر اعتبار دالة على أن الذى خلقها و دبرها و صرفها هو الله الذى لا إله إلا هو و لا معبود سواه و أنه عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم و أنه القادر على كل شيء الحكيم فى كل شيء المحمود على ما خلقه و أمر به تبارك و تعالى(٣)

(و)من الآيات على كمال قدرته و بديع صنعته أن جعل(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ)

*أراضٍ تُجَاوِرُ بَعْضُهَا بَعْضًا مَعَ أَنَّ هَذِهِ طَيِّبَةٌ تُنْبِتُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ وَ هَذِهِ سَبَخة مَالِحَةٌ لَا تُنْبِتُ شَيْئًا. وَ كَذَا يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اخْتِلَافُ أَلْوَانِ بِقَاعِ الْأَرْضِ فَهَذِهِ تُرْبَةٌ حَمْرَاءُ وَ هَذِهِ بَيْضَاءُ وَ هَذِهِ صَفْرَاءُ وَ هَذِهِ سَوْدَاءُ وَ هَذِهِ مُحَجَّرَةٌ وَ هَذِهِ سَهْلَةٌ وَ هَذِهِ مُرَمَّلَةٌ وَ هَذِهِ سَمِيكَةٌ وَ هَذِهِ رَقِيقَةٌ وَ الْكُلُّ مُتَجَاوِرَاتٌ. فَهَذِهِ بِصِفَتِهَا وَ هَذِهِ بِصِفَتِهَا الْأُخْرَى فَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ لَا رَبَّ سِوَاهُ.

الاعجاز العلمي الرابط

*و يفهم القارىء العادى من هذه الآية تجاور حقولا لمزارعين بما فيها من جنات و أعناب و نخيل
و لكن المتمعن علمياً فى معنى هذه الآية يرى:-
إذا كان جيولوجياً أن الألواح القارية(التى نتجت عن تصدع القشرة الأرضية على مستوى الكوكب تحت البحار و المحيطات و اليابسة) بدليل قوله تعالى:-(والأرض ذات الصدع)
هى القطع المقصودة قرآنياً و التى تنقسم إليها كل القشرة الأرضية أى:-(القطع المتجاورات)
و لو كانت الأرض مستوية مسطحة لتجاورت كل القطع ما عدا القطع الموجودة فى أطرافها بينما لكى يتحقق التجاور للجميع طبقاً للنص القرآنى:-
(قطع متجاورات)فلا بد أن يكون السطح كروياً لأن انحناء السطح يؤدى إلى تجاور جميع القطع الأمر الذى لا يتوفر مطلقاً فى السطح المستوى
فهل أدركت عزيزى القارىء دقة التعبير القرآنى فى عبارة (قطع متجاورات)

(وَجَنَّٰتٌ)فيها أنواع الأشجار(مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ)و غير ذلك(وَنَخِيلٞ)و النخيل التي بعضها

(صِنۡوَانٞ)عدة أشجار فى أصل واحد

الصِّنْوَانُ:-هِىَ الْأُصُولُ الْمُجْتَمِعَةُ فِي مَنْبَتٍ وَاحِدٍ كَالرُّمَّانِ وَ التِّينِ وَ بَعْضِ النَّخِيلِ وَ نَحْوِ ذَلِكَ

(وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ)بأن كان كل شجرة على حدتها

*وَ غَيْرُ الصِّنْوَانِ:-مَا كَانَ عَلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ كَسَائِرِ الْأَشْجَارِ وَ مِنْهُ سُمِّى عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ

كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ:-983-مسلم: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِﷺقَالَ لِعُمَرَ:"أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ؟

(مثله و نظيره يعنى أنهما من أصل واحد يقال لنخلتين طلعتا من عرق واحد صنوان ولأحدهما صنو ويكون جمعه على صورة مثناه المرفوع ويتميزان بالإعراب)

و الجميع(يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ)و أرضه واحدة

(وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ)

لونا و طعما و نفعا و لذة فهذه أرض طيبة تنبت الكلأ و العشب الكثير و الأشجار و الزروع

و هذه أرض تلاصقها لا تنبت كلأ و لا تمسك ماء و هذه تمسك الماء و لا تنبت الكلأ

و هذه تنبت الزرع و الأشجار و لا تنبت الكلأ و هذه الثمرة حلوة و هذه مرة و هذه بين ذلك.

فهل هذا التنوع فى ذاتها و طبيعتها؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ)

أى:لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم و تقودهم إلى ما يرشدهم و يعقلون عن الله وصاياه و أوامره و نواهيه

*و أما أهل الإعراض و أهل البلادة :—

فهم فى ظلماتهم يعمهون و فى غيهم يترددون لا يهتدون إلى ربهم سبيلا و لا يعون له قيلا ﴿٤﴾

*يحتمل أن معنى قوله(وَإِن تَعۡجَبۡ)

من عظمة الله تعالى و كثرة أدلة توحيده فإن العجب—مع هذا—إنكار المكذبين و تكذيبهم بالبعث

انكار المشركين للبعث 5-7

(أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ)

أى:هذا بعيد فى غاية الامتناع بزعمهم أنهم بعد ما كانوا ترابا أن الله يعيدهم فإنهم—من جهلهم—قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق

فلما رأوا هذا ممتنعا فى قدرة المخلوق ظنوا أنه ممتنع على قدرة الخالق و نسوا أن الله خلقهم أول مرة و لم يكونوا شيئا.

(وَإِن تَعۡجَبۡ)-أيها الرسول- من عدم إيمانهم بعد هذه الأدلة

(فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ)فالعجب الأشدُّ من قولهم: أإذا متنا و كنا ترابا نُبعث من جديد؟

*و يحتمل أن معناه: (وَإِن تَعۡجَبۡ)من قولهم و تكذيبهم للبعث

(فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ)فإن ذلك من العجائب فإن الذى توضح له الآيات و يرى من الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك و الريب ثم ينكر ذلك فإن قوله من العجائب.

و لكن ذلك لا يستغرب على(أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ)و جحدوا وحدانيته و هى أظهر الأشياء و أجلاها

(وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ)السلاسل من النار فى أعناقهم يوم القيامة-المانعة لهم من الهدى

(فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ)حيث دُعُوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا و عُرِضَ عليهم الهدى فلم يهتدوا فقلبت قلوبهم و أفئدتهم عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة

(وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ)لا يخرجون منها أبدا۝٥

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ
عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۗ
إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ
وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾
سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾
لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ
حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾
هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ
وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ)و يستعجلك المكذِّبون بالعقوبة التى لم أعاجلهم بها

(قَبْلَ الْحَسَنَةِ)الإيمان الذى يرجى به الأمان و الحسنات

*يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله المشركين به الذين وعظوا فلم يتعظوا و أقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها بل جاهروا بالإنكار و استدلوا بحلم الله الواحد القهار عنهم و عدم معاجلتهم بذنوبهم أنهم على حق و جعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب و يقول قائلهم:-

(اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نزلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ 6 لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ 7مَا نُنزلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ}[الْحِجْرِ]

وَ قَالَ تَعَالَى:{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ53 يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ}[الْعَنْكَبُوتِ]وَ قَالَ:{سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} [الْمَعَارِجِ: 1]

وَ قَالَ:{يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ}[الشُّورَى: 18]

{وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [ص: 16]أَيْ: حِسَابَنَا وَ عِقَابَنَا

(و) الحال أنه (وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ)وقائع الله و أيامه فى الأمم المكذبين أفلا يتفكرون فى حالهم و يتركون جهلهم

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ)

أى: لا يزال خيره إليهم و إحسانه و بره و عفوه نازلا إلى العباد و هم لا يزال شرهم و عصيانهم إليه صاعدًا.

يعصونه فيدعوهم إلى بابه و يجرمون فلا يحرمهم خيره و إحسانه

فإن تابوا إليه فهو حبيبهم لأنه يحب التوابين و يحب المتطهرين و إن لم يتوبوا فهو طبيبهم يبتليهم بالمصائب ليطهرهم من المعايب

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

*إِنَّهُ ذُو عَفْوٍ وَ صَفْحٍ وَ سَتْرٍ لِلنَّاسِ مَعَ أَنَّهُمْ يَظْلِمُونَ وَ يُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ.

ثُمَّ قَرَنَ هَذَا الْحُكْمَ بِأَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِيَعْتَدِلَ الرَّجَاءُ وَ الْخَوْفُ

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [الأَنْعَام: 147]

وَ قَالَ:-{إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأَعْرَاف: 167]

وَ قَالَ:-{نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ49وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ} [الْحِجْر]

إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَجْمَعُ الرَّجَاءَ وَ الْخَوْفَ

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)

على من لم يزل مصرا على الذنوب قد أبى التوبة و الاستغفار و الالتجاء إلى العزيز الغفار

فليحذر العباد عقوباته بأهل الجرائم فإن أخذه أليم شديد 6

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا)أى:و يقترح الكفار عليك من الآيات التى يعينونها

و يقولون:-(لَوْلَا)هلا(أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ)جاءته معجزة محسوسة كعصا موسى و ناقة صالح(مِّن رَّبِّهِ)

*و يجعلون هذا القول منهم عذرا لهم فى عدم الإجابة إلى الرسول

و الحال أنه منذر ليس له من الأمر شيء و الله هو الذى ينزل الآيات.

و قد أيده بالأدلة البينات التى لا تخفى على أولى الألباب و بها يهتدى من قصده الحق

و أما الكافر الذى– من ظلمه و جهله–يقترح على الله الآيات فهذا اقتراح منه باطل و كذب و افتراء.

فإنه لو جاءته أى آية كانت لم يؤمن و لم ينقد لأنه لم يمتنع من الإيمان لعدم ما يدله على صحته و إنما ذلك لهوى نفسه و اتباع شهوته

*يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ كُفْرًا وَ عِنَادًا:-

لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ ربه كما أرسل الأولون كما تعتنوا عَلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا وَ أَنْ يُزِيلَ عَنْهُمُ الْجِبَالَ وَ يَجْعَلَ مَكَانَهَا مُرُوجًا وَ أَنْهَارًا قَالَ اللَّهُ{وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفًا} [الإِسْرَاء: 59]

قَالَ اللَّهُ{إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ}أَىْ: إِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تُبَلِّغَ رِسَالَةَ اللَّهِ الَّتِى أَمَرَكَ بِهَا

{لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [البَقَرَة: 272] .

(وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ)داع يدعوهم إلى الهدى من الرسل و أتباعهم و معهم من الأدلة و البراهين ما يدل على صحة ما معهم من الهدى.كَمَا قَالَ:-{وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ} [فَاطِرٍ: 24] ٧

*يخبر تعالى بعموم علمه و سعة اطلاعه و إحاطته بكل شيء فقال:—

احاطة علم الله و قدرته 8-16

(ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ)من بنى آدم و غيرهم

(وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ)تنقص مما فيها إما أن يهلك الحمل أو يتضاءل أو يضمحل

*قال الدكتور زغلول النجار(من مقطع على اليوتيوب):-

من الثابت أن الجنين فى مراحله الاولى إذا قُدِر له الوفاة:-(يتحلل الى سائل و يتشربه جدار الرحم) دون أن تعلم المرأة أنها حملت و دون أن يعلم أحد انها حملت

*و يشبه الله تحلل هذا الجنين فى مراحله الأولى بغيض الماء في الأرض كما قال الله:-

{وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِيوَغِيضَ الْمَاءُ}[هود: 44]

(وَمَا تَزۡدَادُۖ)الأرحام و تكبر الأجنة التى فيها

*قال الدكتور زغلول النجار:-و اذا بقى فيؤدى الى زيادة بطن هذه المرأة الحامل

(وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ)لا يتقدم عليه و لا يتأخر و لا يزيد و لا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته و علمه.

*يخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ وَ أَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا تَحْمِلُهُ الْحَوَامِلُ مِنْ كُلِّ إِنَاثِ الْحَيَوَانَاتِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الأرْحَامِ} [لُقْمَانَ: 34]

أَيْ: مَا حَمَلَتْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى أَوْ حَسَنٍ أَوْ قَبِيحٍ أَوْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ أَوْ طَوِيلِ الْعُمُرِ أَوْ قَصِيرِهُ

كَمَا قَالَ{هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النَّجْمِ: 32] وَ قَالَ{يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ}[الزُّمَرِ:6]أَيْ: خَلَقَكُمْ طَوْرًا مِنْ بَعْدِ طَوْرٍ

كَمَا قَالَ{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ12ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ13ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[الْمُؤْمِنُونَ]

وَ فِي البخارى -3208-عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مضغة مثل ذلك ثم يبعث إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ:-يَكْتب رِزْقَه وَ عُمُرَهُ و عَمَلَهُ وَ شَقِّيٌ أَوْ سَعِيدٌ"

*وَ فِي مسلم (2645) من حديث حذيفة بن أسيدﷺ:-"فَيَقُولُ الْمَلَكُ: أيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ أَيْ رَبِّ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ وَ يَكْتُبُ الْمَلَكُ" 8

فإنه(عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ)ما خفى عن الأبصار

(وَٱلشَّهَٰدَةِ)ما هو مشاهَد

(ٱلۡكَبِيرُ)فى ذاته و أسمائه و صفاته

(ٱلۡمُتَعَالِ)على جميع خلقه بذاته و قدرته و قهره 9

(سَوَآءٞ)يستوى فى علمه و سمعه و بصره.

(مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ)أخفى(ٱلۡقَوۡلَ)منكم(وَمَن جَهَرَ بِهِۦ)

كَمَا قَالَ:{وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}[طه: 7] وَ قَالَ:-{وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} [النَّمْل: 25]
وَ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:-سُبْحَانَ الَّذِى وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ وَ اللهِ لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ تَشْتَكِى زَوْجَهَا
إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺوَ أَنَا فِى جَنْبِ الْبَيْتِ وَ إِنَّهُ لَيَخْفَى علىَّ بَعْضُ كَلَامِهَا فَأَنْزَلَ اللهُ:-
{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[الْمُجَادَلَة: 1]

(وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ)أى: مستقر بمكان خفى فيه

(وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ)داخل سربه فى النهار

و السرب:–هو ما يختفى فيه الإنسان إما جوف بيته أو غار أو مغارة أو نحو ذلك10

(لَهُۥ)أى: للإنسان(مُعَقِّبَٰتٞ)من الملائكة يتعاقبون في الليل و النهار.

*لِلْعَبِدِ مَلَائِكَةٌ يَتَعَاقَبُونَ عَلَيْهِ حَرَس بِاللَّيْلِ و حَرَس بِالنَّهَارِ يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْأَسْوَاءِ وَ الْحَادِثَاتِ
كَمَا يَتَعَاقَبُ مَلَائِكَةٌ آخَرُونَ لِحِفْظِ الْأَعْمَالِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَ مَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ

(مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ)

فَاثْنَانِ عَنِ الْيَمِينِ و عَنِ الشِّمَالِ يَكْتُبَانِ الْأَعْمَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ
وَ صَاحِبُ الشِّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ وَ مَلَكَانِ آخَرَانِ يَحْفَظَانِهِ وَ يَحْرُسَانِهِ وَاحِدًا مِنْ وَرَائِهِ وَ آخِرَ مَنْ قُدَّامِهِ
فَهُوَ بَيْنُ أَرْبَعَةِ أَمْلَاكٍ بِالنَّهَارِ وَ أَرْبَعَةِ آخَرِينَ بِاللَّيْلِ بَدَلًا حَافِظَانِ وَ كَاتِبَانِ
*البخارى555 -عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-
يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ(تأتى طائفة بعد الأخرى)مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَ مَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَ يَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَ صَلَاةِ العَصْرِ
ثُمَّ يَعْرُجُ(يصعد إلى السماء)الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ
(فيسأل الله تعالى الملائكة عن حال المصلين و هو أعلم بحالهم و الحكمة من سؤالهم إظهار شهادتهم لبني آدم بالخير):-
كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَ هُمْ يُصَلُّونَ وَ أَتَيْنَاهُمْ وَ هُمْ يُصَلُّونَ "

(يَحۡفَظُونَهُۥ)يحفظون بدنه و روحه(مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ)من كل من يريده بسوء و يحفظون عليه أعماله

و هم ملازمون له دائما فكما أن علم الله محيط به فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد

بحيث لا تخفى أحوالهم و لا أعمالهم و لا ينسى منها شيء

*وَ قَالَ عِكْرِمة عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:-(يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)قَالَ:-
مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مَنْ خَلْفِهِ فَإِذَا جَاءَ قَدَرُ اللَّهِ خَلَّوا عَنْهُ.
*مسلم(2814)عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:-
قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَ قَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ»قَالُوا:وَ إِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ
قَالَ: «وَ إِيَّاىَ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِى عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِى إِلَّا بِخَيْرٍ»

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ)من النعمة و الإحسان و رغد العيش

(حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ)

بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر و من الطاعة إلى المعصية أو من شكر نعم الله إلى البطر بها فيسلبهم الله عند ذلك إياها.

و كذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية فانتقلوا إلى طاعة الله غَيَّر الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير و السرور و الغبطة و الرحمة

(وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا)عذابا و شدة و أمرا يكرهونه فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم.

(فَـ)إنه (فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ)و لا أحد يمنعهم منه

(وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ)يتولى أمورهم فيجلب لهم المحبوب و يدفع عنهم المكروه

فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله خشية أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين 11

غيِّر نفسك أولا!!

كنتُ أرى سنين عُمُري تذهبُ هدرًا دون أيِّ إدراكٍ مني، إذ كُنت في عزلة

أقربُ للانطوائية، وكان بعض من حولي يُحاولون إخراجي من الجو الذي كُنت فيه، واستمرَّ الحال حتى أصبح عمري ١٩ سنة، وشيئًا فشيئًا بدأتُ أشعر أنني فعلا بعيدة عن الواقع وعن الحياة، فحاولتُ أن أغير نفسي فلم أستطع.

اسودَّت الدنيا بعدها في عينيَّ، وأحسستُ أنني انتهيتُ وَضِعْتُ للأبد، وكرهتُ نفسي واستسلمتُ في خنوع لواقعي، بل إنني أقنعتُ نفسي أن الناس من حولي لن يعودوا إلى تقبُّلي مرة أخرى، فأنا في نظرهم المنعزلة والوحيدة، وفي يوم قرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[1]؛ فعرفتُ أن التغيير لابدَّ أن يبدأ من نفسي، ففرحتُ جدًّا وقررتُ أن أُغيِّر نظرتي للحياة ولنفسي أولا، وبعدها ستتغيَّر نظرة الناس لي بالتأكيد، وبالفعل أصبحتُ أفضلَ ولله الحمد، صحيحٌ أنني لازلتُ في بداية الطريق، لكنَّ التغيُّرَ كان ظاهرًا جدًا عليَّ، والحمد لله.

(١) الرعد: ١١.

(هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا)يخاف منه الصواعق و الهدم و أنواع الضرر على بعض الثمار و نحوها

(وَطَمَعٗا)و يطمع في خيره و نفعه

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

طفلة في الحادية عشرة من العمر، كانت تقول لأمها باستمرار: كلما مررتُ بآيات معينة من القرآن زاد خوفي، وتملّكتني الرهبة، وأحسستُ أن الله قد يُنزل بنا العذاب إن قصّرنا في حقه.

– سألتها الأم: وما هي هذه الآيات؟

– فأجابت الطفلة: هي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[٢]. الرعد: ١٢-١٣

(وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ)بالمطر الغزير الذى به نفع العباد و البلاد.

*وَ يَخْلُقُهَا مُنْشَأَةً جَدِيدَةً وَ هِىَ لِكَثْرَةِ مَائِهَا ثَقِيلَةٌ قَرِيبَةٌ إِلَى الْأَرْضِ ۝١٢

(وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ)و هو الصوت الذي يسمع من السحاب المزعج للعباد فهو خاضع لربه مسبح بحمده

كَمَا قَالَ تَعَالَى:-{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} [الإسراء: 44]

* 2483 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺقَالَ: أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺفَقَالُوا:-
يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَ اتَّبَعْنَاكَ
فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ مَا أَخَذَ إِسْرَائِيلُ عَلَى بَنِيهِ إِذْ قَالُوا:-اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ قَالَ:-" هَاتُوا "
قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ عَلامَةِ النَّبِيِّ قَالَ: " تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلا يَنَامُ قَلْبُهُ "
قَالُوا:-أَخْبِرْنَا كَيْفَ تُؤَنِّثُ الْمَرْأَةُ وَ كَيْفَ تُذْكِرُ؟ قَالَ:-
"يَلْتَقِي الْمَاءَانِ فَإِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَتْ وَإِذَا عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ آنَثَتْ "
قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَ:-" كَانَ يَشْتَكِى عِرْقَ النَّسَا
فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَائِمُهُ إِلا أَلْبَانَ كَذَا وَكَذَا –قَالَ أَبِي:-"قَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِى الْإِبِلَ"- فَحَرَّمَ لُحُومَهَا "
قَالُوا: صَدَقْتَ قَالُوا:-أَخْبِرْنَا مَا هَذَا الرَّعْدُ؟ قَالَ:-"مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ بِيَدِهِ-
أَوْ فِي يَدِهِ-مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ يَسُوقُهُ(كقوله{فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا} يَعْنِى الْمَلَائِكَةَ تَزْجُرُ السَّحَابَ أَىْ: تَسُوقُهُ)
حَيْثُ أَمَرَ اللهُ " قَالُوا:-فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: " صَوْتُهُ "
قَالُوا: صَدَقْتَ إِنَّمَا بَقِيَتْ وَاحِدَةٌ وَ هِىَ الَّتِى نُبَايِعُكَ إِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلا لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالْخَبَرِ
فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟ قَالَ:"جِبْرِيلُ ﷺ"قَالُوا: جِبْرِيلُ ذَاكَ الَّذِى يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَ الْقِتَالِ وَ الْعَذَابِ عَدُوُّنَا
لَوْ قُلْتَ: مِيكَائِيلَ الَّذِى يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَ النَّبَاتِ و الْقَطْرِ
لَكَانَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ}[البقرة: 97]إِلَى آخِرِ الْآيَةِ (1)

(وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ) خشعا لربهم خائفين من سطوته

(وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ)و هى هذه النار التى تخرج من السحاب

(فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-عن ثابت عن أنس قال :-

بعث رسول الله ﷺ رجلا من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية يدعوه إلى الله تبارك وتعالى فقال أيش ربك الذى تدعوني إليه من حديد هو؟من نحاس هو؟من فضة هو؟ من ذهب هو؟ فأتى النبى ﷺفأخبره فأعاد النبى ﷺالثانية.فقال مثل ذلك. فأرسله إليه الثالثة. فقال مثل ذلك. فأتى النبى ﷺفأرسل الله تبارك و تعالى عليه صاعقة فأحرقته فقال رسول الله ﷺ:- إن الله تبارك و تعالى قد أرسل على صاحبك صاعقة فأحرقته. فنزلت هذه الآية:-

{وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ

(وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ)من عباده بحسب ما شاءه و أراده-يَشُكّون فِي عَظَمَتِهِ

(وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ)أى: شديد الحول و القوة فلا يريد شيئا إلا فعله و لا يتعاصى عليه شيء و لا يفوته هارب.

فإذا كان هو وحده الذى يسوق للعباد الأمطار و السحب التى فيها مادة أرزاقهم و هو الذى يدبر الأمور و تخضع له المخلوقات العظام التى يخاف منها و تزعج العباد و هو شديد القوة – فهو الذى يستحق أن يعبد وحده لا شريك له﴿١٣﴾

و لهذا قال:-

لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ
وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩
﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ
قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ
قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ
زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ
فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾
لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ
لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾

(لَهُۥ)أى: لله وحده (دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ)و هى: عبادته وحده لا شريك له

1–و إخلاص دعاء العبادة 2–و دعاء المسألة له تعالى أى: هو الذى ينبغى أن يصرف له:–

الدعاء و الخوف و الرجاء و الحبو الرغبة و الرهبة و الإنابة لأن ألوهيته هى الحق و ألوهية غيره باطلة

(وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ)من الأوثان و الأنداد التى جعلوها شركاء لله.

(لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ)أى: لمن يدعوها و يعبدها بشيء قليل و لا كثير لا من أمور الدنيا و لا من أمور الآخرة

(إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ)الذى لا تناله كفاه لبعده

(لِيَبۡلُغَ)ببسط كفيه إلى الماء

(فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ)

فإنه عطشان و من شدة عطشه يتناول بيده و يبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه فلا يصل إليه.

*كذلك الكفار الذين يدعون معه آلهة لا يستجيبون لهم بشيء و لا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة لأنهم فقراء كما أن من دعوهم فقراء لا يملكون مثقال ذرة فى الأرض و لا فى السماء و ما لهم فيهما من شرك و ما له منهم من ظهير.

(وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ)

لبطلان ما يدعون من دون الله فبطلت عباداتهم و دعاؤهم لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها

و لما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين كانت عبادته حقًّا متصلة النفع لصاحبها فى الدنيا و الآخرة.

*و تشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة فإن ذلك تشبيه بأمر محال فكما أن هذا محال فالمشبه به محال و التعليق على المحال من أبلغ ما يكون فى نفى الشيء كما قال

{إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}﴿١٤﴾

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)جميع ما احتوت عليه السماوات و الأرض كلها خاضعة لربها تسجد له

(طَوْعًا)فالطوع لمن يأتي بالسجود و الخضوع اختيارا كالمؤمنين

(وَكَرْهًا)و الكره لمن يستكبر عن عبادة ربه و حاله و فطرته تكذبه فى ذلك

(وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ)

و يسجد له ظلال المخلوقات أول النهار و آخره و سجود كل شيء بحسب حاله كما قال تعالى:-

{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}

*كَمَا قَالَ{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ}[النَّحْلِ: 48]﴿١٥﴾

*فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعا و كرها كان هو الإله حقا المعبود المحمود حقا و إلهية غيره باطلة و لهذا ذكر بطلانها و برهن عليه بقوله:

(قُلْ)أى:لهؤلاء المشركين به أوثانا و أندادا يحبونها كما يحبون الله و يبذلون لها أنواع التقربات و العبادات:-

(مَن رَّبُّ)خالق و مدبر

(ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ)هو الخالق المدبر

مثال على الحق و الباطل و اهلها 16-17

(قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم)أفتاهت عقولكم حتى اتخذتم

(مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ)تتولونهم بالعبادة و ليسوا بأهل لذلك؟

فإنهم(لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)و تتركون ولاية من هو كامل الأسماء و الصفات المالك للأحياء و الأموات الذى بيده الخلق و التدبير و النفع و الضر؟

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ)

فما تستوى عبادة الله وحده و عبادة المشركين به كما لا يستوى الأعمى و البصير و كما لا تستوى الظلمات و النور 31

(أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ)و جعلوا له شركاء زعموا أنهم خلقوا كخلقه و فعلوا كفعله

(فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ)فتشابه خَلْق الشركاء بخلق الله فاعتقدوا استحقاقهم للعبادة؟

فإن كان عندهم شك و اشتباه:–فأزلْ عنهم هذا الاشتباه و اللبس بالبرهان الدال على توحد الإله بالوحدانية

فـــ(قُلِ)لهم:–(ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ)فإنه من المُحال أن يَخْلُقَ شيء من الأشياء نفسه.

و من المُحال أيضا أن يوجد من دون خالق فتعين أن لها إلها خالقا لا شريك له في خلقه

لأنه(وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ)

فإنه لا توجد الوحدة و القهر إلا لله وحده فالمخلوقات و كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره ثم فوق ذلك القاهر

قاهر أعلى منه حتى ينتهى القهر للواحد القهار(Î)

فالقهر و التوحيد متلازمان متعينان لله وحده فتبين بالدليل العقلى القاهر أن:–

ما يدعى من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات و بذلك كانت عبادته باطلة16

(أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ)فجَرَت به(أَوۡدِيَةُۢ)الأرض

(بِقَدَرِهَا)صغرها و كبرها

(فَٱحۡتَمَلَ)فحمل(ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ)غثاء طافيًا فوقه لا نفع فيه

*شبّه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله لحياة القلوب و الأرواح بـالماء الذي أنزله لحياة الأشباح

*و شبّه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذى يضطر إليه العباد بما فى المطر من النفع العام الضرورى

*و شبه القلوب الحاملة للهدى و تفاوتها بـالأودية التى تسيل فيها السيول

*فواد كبير يسع ماء كثيرا كقلب كبير يسع علما كثيرا

*و واد صغير يأخذ ماء قليلا كقلب صغير يسع علما قليلا و هكذا.

*و ضرب مثلا آخر:- (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ)هو المعادن يوقِدون عليها النار لصهرها

(ٱبۡتِغَآءَ)طلبًا(حِلۡيَةٍ)للزينة كما فى الذهب و الفضة

(أَوۡ مَتَٰعٖ)أو طلبًا لمنافع ينتفعون بها كما فى النحاس

(زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ)فيخرج منها خبثها مما لا فائدة فيه كالذى كان مع الماء

*و شبه ما يكون فى القلوب من الشهوات و الشبهات عند وصول الحق إليها بالزبد الذى يعلو الماء و يعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التى يراد تخليصها و سبكها

شرح أسماء الله الحسنى فى ضوء الكتاب والسنة :-وهو الذى قهر جميع الكائنات و ذلّت له جميع المخلوقات ودانت لقدرته ومشيئته مواد وعناصر العالم العلوى والسفلى فلا يحدث حادث و لا يسكن ساكن إلا بإذنه وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وجميع الخلق فقراء إلى الله عاجزون لا يملكون لأنفسهم نفعاً و لا ضراً و لا خيراً و لا شراً .

(فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ)و أنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له حتى تذهب و تضمحل

(وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ)و يبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي و الحلية الخالصة.

*كذلك الشبهات و الشهوات لا يزال القلب يكرهها و يجاهدها بالبراهين الصادقة و الإرادات الجازمة حتى تذهب و تضمحل و يبقى القلب خالصا صافيا ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق و إيثاره و الرغبة فيه فالباطل يذهب و يمْحَقَهُ الحق (إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

و قال هنا:-(كَذَٰلِكَ)بمثل هذا يضرب الله المثل للحق و الباطل

(يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ)ليتضح الحق من الباطل و الهدى و الضلال.

*لما بيّن تعالى الحق من الباطل ذكر أن الناس على قسمين:-

1-مستجيب لربه فذكر ثوابه 2-و غير مستجيب 17

فذكر عقابه فقال:-

مصير و صفات المؤمنين و الكافرين و عاقبتهم 18-25

(لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ)

انقادت قلوبهم للعلم و الإيمان و جوارحهم للأمر و النهى و صاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم

فلهم(ٱلۡحُسۡنَىٰۚ)الحالة الحسنة و الثواب الحسن.

فلهم من الصفات أجلها و من المناقب أفضلها و من الثواب العاجل و الآجل ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر

*كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَنَّهُ قَالَ:{قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا 87 وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا}[الْكَهْفِ] وَ قَالَ{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}[يُونُسَ]

(وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ)لم يطيعوا الله

*بعد ما ضرب لهم الأمثال و بَيَّن لهم الحق لهم الحالة غير الحسنة فـــ(لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا)

من ذهب و فضة و غيرها

(وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ)من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم و أنى لهم ذلك؟!!

(أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ)و هو الحساب الذى يأتى على كل ما أسلفوه من عمل سيئ و ما ضيعوه من حقوق الله و حقوق عباده قد كتب ذلك و سطر عليهم

و قالوا:(يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا

*فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَيْ: يُنَاقَشُونَ عَلَى النَّقِيرِ وَ الْقِطْمِيرِ وَ الْجَلِيلِ وَ الْحَقِيرِ وَ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ

(و) بعد هذا الحساب السيئ

(وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ)الجامعة لكل عذاب من الجوع الشديد و العطش الوجيع و النار الحامية و الزقوم و الزمهرير و الضريع و جميع ما ذكره الله من أصناف العذاب

(وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ)المقر والمسكن مسكنهم18

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ
وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾
وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم
مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ
وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾
ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى:مفرقا بين أهل العلم و العمل و بين ضدهم:-(أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ)ففهم ذلك و عمل به.

*لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْلَمُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الَّذِى

(أُنزِلَ إِلَيْكَ)يَا مُحَمَّدُ(مِن رَّبِّكَ)هوَ (ٱلْحَقُّ)الَّذِى لَا شَكَّ فِيهِ وَ لَا مِرْيَةَ وَ لَا لَبْسَ فِيهِ وَ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ
بَلْ هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا لَا يُضَادُّ شَيْءٌ مِنْهُ شَيْئًا آخَرَ فَأَخْبَارُهُ كُلُّهَا حَقٌّ وَ أَوَامِرُهُ وَ نَوَاهِيهِ عَدْلٌ
كَمَا قَالَ(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا)[الأنعام: 115]أَيْ: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ وَ عَدْلًا فِي الطَّلَبِ
فَلَا يَسْتَوِي مِنْ تَحَقَّقَ صِدْقَ مَا جِئْتَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ

(كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ)لا يعلم الحق و لا يعمل به فبينهما من الفرق كما بين السماء و الأرض

فحقيق بالعبد أن يتذكر و يتفكر أي الفريقين أحسن حالا و خير مآلا فيؤثر طريقها و يسلك خلف فريقها

و لكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه و يضره.

*لَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ وَ لَا يَفْهَمُهُ وَ لَوْ فَهِمَهُ مَا انْقَادَ لَهُ وَ لَا صَدَّقَهُ وَ لَا اتَّبَعَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:
(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)[الحشر: 20] وَ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:-
(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى) أَيْ: أَفَهَذَا كَهَذَا؟ لَا اسْتِوَاءَ.

(إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟)أصحاب(ٱلْأَلْبَٰبِ)العقول الرزينة الصحيحة و الآراء الكاملة هم لُبّ العالم و صفوة بنى آدم19

فإن سألت عن وصفهم فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله:-

(ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ)الذى عهده إليهم و الذى عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة

فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها و النصح فيها

(و)من تمام الوفاء بها أنهم(وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ)العهد الذي عاهدوا عليه الله

فدخل في ذلك جميع المواثيق و العهود و الأيمان و النذور التي يعقدها العباد.

فلا يكون العبد من أولى الألباب الذين لهم الثواب العظيم إلا بأدائها كاملة و عدم نقضها و بخسها.

*وَ لَيْسُوا كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ إِذَا عَاهَدَ أَحَدُهُمْ غَدَرَ وَ إِذَا خَاصَمَ فَجَرَ وَ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ و إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ20

(وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ)

و هذا عام في كل ما أمر الله بوصله من:-

1-الإيمان به و برسوله و محبته و محبة رسوله

2-و الانقياد لعبادته وحده لا شريك له و لطاعة رسوله.

3-و يصلون آباءهم و أمهاتهم ببرهم بالقول و الفعل و عدم عقوقهم

4-و يصلون الأقارب و الأرحام بالإحسان إليهم قولا و فعلا

5-و يصلون ما بينهم و بين الأزواج و الأصحاب و المماليك بأداء حقهم كاملا موفرا من الحقوق الدينية و الدنيوية. و السبب الذى يجعل العبد واصلا ما أمر الله به أن يوصل خشية الله و خوف يوم الحساب

و لهذا قال:-(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)

فِيمَا يَأْتُونَ وَ مَا يَذَرُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ يُرَاقِبُونَ اللَّهَ فِي ذَلِكَ وَ يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.
فَلِهَذَا أَمْرُهُمْ عَلَى السَّدَادِ وَ الِاسْتِقَامَةِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ وَ سَكَنَاتِهِمْ وَ جَمِيعِ أَحْوَالِهِمُ الْقَاصِرَةِ وَ الْمُتَعَدِّيَةِ.

(وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ)يخافونه فيمنعهم خوفهم منه و من القدوم عليه يوم الحساب أن:-

1-يتجرؤوا على معاصى الله

2-أو يقصروا فى شيء مما أمر الله به خوفا من العقاب و رجاء للثواب21

(وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟)

1-على المأمورات بالامتثال

2-و عن المنهيات بالانكفاف عنها و البعد منها

3-و على أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها.

*و لكن بشرط أن يكون ذلك الصبر(ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ)لا لغير ذلك من المقاصد و الأغراض الفاسدة

فإن هذا هو الصبر النافع الذى يحبس به العبد نفسه طلبا لمرضاة ربه و رجاء للقرب منه و الحظوة بثوابه

و هو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان

و أما الصبر المشترك الذى غايته التجلد و منتهاه الفخر

فهذا يصدر من البر و الفاجر و المؤمن و الكافر فليس هو الممدوح على الحقيقة.

(وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ)بأركانها و شروطها و مكملاتها ظاهرا و باطنا

(وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ)دخل في ذلك النفقات الواجبة كالزكوات و الكفارات و النفقات المستحبة و أنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة

(سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ)فِي السِّرِّ وَ الْجَهْرِ لَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَالٌ مِنَ الْأَحْوَالِ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَ أَطْرَافِ النَّهَارِ

(وَيَدۡرَءُونَ)يَدْفَعُونَ(بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ)

من أساء إليهم بقول أو فعل لم يقابلوه بفعله بل قابلوه بالإحسان إليه فيعطون من حرمهم و يعفون عمن ظلمهم و يصلون من قطعهم و يحسنون إلى من أساء إليهم

*و إذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان فما ظنك بغير المسيء؟!

*يدفعون الْقَبِيحَ بِالْحَسَنِ فَإِذَا آذَاهُمْ أَحَدٌ قَابَلُوهُ بِالْجَمِيلِ صَبْرًا وَ احْتِمَالًا وَ صَفْحًا وَ عَفْوًا كَمَا قَالَ:-

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ34وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)[فُصِّلَتْ]

(أُوْلَٰٓئِكَ)الذين وصفت صفاتهم الجليلة و مناقبهم الجميلة

(لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ)22فسرها بقوله:-

(جَنَّٰتُ عَدۡنٖ)أي: إقامة لا يزولون عنها و لا يبغون عنها حولا لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم و السرور الذى تنتهى إليه المطالب والغايات.

و من تمام نعيمهم و قرة أعينهم أنهم(يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ)من الذكور و الإناث

(وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ)

الزوج أو الزوجة و كذلك النظراء و الأشباه و الأصحاب و الأحباب فإنهم من أزواجهم و ذرياتهم

*يُجْمَعُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ أَحْبَابِهِمْ فِيهَا مِنَ الْآبَاءِ وَ الْأَهْلِينَ وَ الْأَبْنَاءِ مِمَّنْ هُوَ صَالِحٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِتَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ بِهِمْ حَتَّى إِنَّهُ تُرْفَعُ دَرَجَةُ الْأَدْنَى إِلَى دَرَجَةِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ تَنْقِيصٍ لِذَلِكَ الْأَعْلَى عَنْ دَرَجَتِهِ بَلِ امْتِنَانًا مِنَ اللَّهِ وَ إِحْسَانًا كَمَا قَالَ:-

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)[الطُّورِ: 21]

(وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ)يهنئونهم بالسلامة و كرامة الله لهم 23

و يقولون:-(سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم)أي:حلت عليكم السلامة و التحية من الله و حصلت لكم

*و ذلك متضمن لزوال كل مكروه و مستلزم لحصول كل محبوب.

(بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ)بسبب صبركم هو الذى أوصلكم إلى هذه المنازل العالية و الجنان الغالية

(فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ)لهم العاقبة المحمودة فى الآخرة.

*فحقيق بمن نصح نفسه و كان لها عنده قيمة أن يجاهدها لعلها تأخذ من أوصاف أولى الألباب بنصيب لعلها تحظى بهذه الدار التى هى:-

1-منية النفوس

2-و سرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات و الأفراح فلمثلها فليعمل العاملون و فيها فليتنافس المتنافسون24

*لما ذكر حال أهل الجنة ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به فقال عنهم:-

(وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ)ما أكده عليهم على أيدى رسله و غلظ عليهم فلم يقابلوه بالانقياد و التسليم بل قابلوه بالإعراض و النقص

(وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ)

فلم يصلوا ما بينهم و بين ربهم بالإيمان و العمل الصالح و لا وصلوا الأرحام و لا أدوا الحقوق

(وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ)بل أفسدوا فى الأرض بــ:-

1-الكفر و المعاصى 2-و الصد عن سبيل الله 3-و ابتغائها عوجا

(أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ)البعد و الذم من الله و ملائكته و عباده المؤمنين

(وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ)و هى:الجحيم بما فيها من العذاب الأليم.

* كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ:-إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَ إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَ إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ"

وَ فِي رِوَايَةٍ: "وَ إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَ إِذَا خَاصَمَ فَجر"٢٥

الرزق و الهداية من الله 26-28

(ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ)هو وحده يوسع الرزق و يبسطه على من يشاء

(وَيَقۡدِرُۚ)و يقدره و يضيقه على من يشاء لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ الْعَدْلِ.

(وَفَرِحُواْ)أى: الكفار

(بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا)فرحا أوجب لهم أن يطمئنوا بها و يغفلوا عن الآخرة و ذلك لنقصان عقولهم

وَ فَرِحَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ بِمَا أُوتُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ وَ إِمْهَالًا

كَمَا قَالَ(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ55 نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ)[الْمُؤْمِنُونَ].

(وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ)شىء حقير يتمتع به قليلا و يفارق أهله و أصحابه و يعقبهم ويلا طويلا.

*كَمَا قَالَ:(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا) [النِّسَاءِ: 77]

وَ قَالَ(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا16وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)[الْأَعْلَى]

*مسلم(2858)عن الْمُسْتَوْرِدِ أَخَى بَنِى فِهْرٍ يَقُولُ:-قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«وَ اللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ-وَ أَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ-فِي الْيَمِّ(البحر)

فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟»(ضبطوا يرجع بالتاء وبالياء والأول أشهر ومن رواه بالياء أعاد الضمير إلى أحدكم وبالتاء أعاده على الإصبع وهو الأظهر ومعناه لا يعلق بها كثير شيء من الماء ومعنى الحديث ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر)

*مسلم (2957)عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺمَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ وَ النَّاسُ كَنَفَتَهُ(جانبيه)فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ(صغير الأذنين) مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ:-«أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟» فَقَالُوا:-مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَ مَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟»
قَالُوا:-وَ اللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لِأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَ هُوَ مَيِّتٌ؟
فَقَالَ:-«فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»(٣٦)

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله يتعنتون على رسول الله و يقترحون و يقولون:

(لَوْلَآ)هلا(أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ)و بزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا كَمَا قَالُوا: (فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ) [الأَنْبِيَاءِ: 5]

*أحمد 2166 -عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:-قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ:-
ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصَّفَا ذَهَبًا وَ نُؤْمِنُ بِكَ قَالَ:-«وَ تَفْعَلُونَ؟»
قَالُوا:-نَعَمْ قَالَ: فَدَعَا فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلامفَقَالَ:-" إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ
وَ يَقُولُ: إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ
وَ إِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَ الرَّحْمَةِ "قَالَ: «بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَ الرَّحْمَةِ»
*وَ لِهَذَا قَالَ لِرَسُولِهِ: (قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)
أَيْ: هُوَ الْمُضِلُّ وَ الْهَادِي سَوَاءٌ بَعَثَ الرَّسُولَ بِآيَةٍ عَلَى وَفْقِ مَا اقْتَرَحُوا أَوْ لَمْ يُجِبْهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ
فَإِنَّ الْهِدَايَةَ وَ الْإِضْلَالَ لَيْسَ مَنُوطًا بِذَلِكَ وَ لَا عَدَمِهِ كَمَا قَالَ:-(وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)يُونُسَ: 101
وَ قَالَ (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ96 وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ) [يُونُسَ]
وَ قَالَ(وَلَوْ أَنَّنَا نزلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ) [الأَنْعَامِ: 111]

*فأجابهم الله بقوله:-(قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ)

أى:طلب رضوانه فليست الهداية و الضلال بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفا على الآيات و مع ذلك فهم

كاذبون(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ)

و لا يلزم أن يأتى الرسول بالآية التي يعينونها و يقترحونها

بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق كفى ذلك و حصل المقصود و كان أنفع لهم من طلبهم الآيات

التى يعينونها فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب(٣٧)

*ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال:-

(ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ)يزول قلقها و اضطرابها و تحضرها أفراحها و لذاتها.

(أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ)

أى:حقيق بها و حريٌّ أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره فإنه لا شيء ألذ للقلوب و لا أشهى و لا أحلى من محبة خالقها و الأنس به و معرفته

*و على قدر معرفتها بالله و محبتها له يكون ذكرها له

هذا على القول بأن ذكر الله ذكر العبد لربه من:-تسبيح و تهليل و تكبير و غير ذلك.

*و قيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذى أنزله ذكرى للمؤمنين فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله: – أنها حين تعرف معانى القرآن و أحكامه تطمئن لها فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة و البراهين و بذلك تطمئن القلوب فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين و العلم

و ذلك فى كتاب الله مضمون على أتم الوجوه و أكملها و أما ما سواه من الكتب التى لا ترجع إليه فلا تطمئن بها بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة و تضاد الأحكام.(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا)

و هذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله و تدبره و تدبر غيره من أنواع العلوم فإنه يجد بينها و بينه فرقا عظيما ٢٨

ثم قال تعالى:

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ
قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ
بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾
وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾
أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ
أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾
لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾

(ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)بقلوبهم بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر

(وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)و صدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة أعمال القلوب كـ:-محبة الله و خشيته و رجائه و أعمال الجوارح كـ:-الصلاة و نحــــوها.

عاقبة المؤمنين و مهمة الرسول و القرآن 30

(طُوبَىٰ)حالة طيبة(لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ)مرجع

و ذلك بما ينالون من رضوان الله و كرامته فى الدنيا و الآخرة و أن لهم كمال الراحة و تمام الطمأنينة

*و من جملة ذلك شجرة طوبى التى فى الجنة التى يسير الراكب فى ظلها مائة عام ما يقطعها كما وردت بها الأحاديث الصحيحة.

*الترمذى2541-عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ:-سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِﷺ وَ ذَكَرَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى
قَالَ:يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّ الْفَنَنِ مِنْهَا مِائَةَ سَنَةٍ أَوْ يَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا مِائَةُ رَاكِبٍ شَكَّ يَحْيَى فِيهَا فِرَاشُ الذَّهَبِ كَأَنَّ ثَمَرَهَا الْقِلاَلُ.

الرد على الكفار و مصيرهم 31-34

*البخارى6552 - عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِﷺقَالَ:-
«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا»﴿٢٩﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ:-(كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ)إلى قومك تدعوهم إلى الهدى

(قَدۡ خَلَتۡ)مضت(مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ)

أرسلنا فيهم رسلنا فلست ببدع من الرسل حتى يستنكروا رسالتك و لست تقول من تلقاء نفسك

(لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ)

بل تتلو عليهم آيات الله التى أوحاها الله إليك التى تطهر القلوب و تزكى النفوس.

*وَ كَمَا أَوْقَعْنَا بَأْسَنَا وَ نِقْمَتَنَا بِأُولَئِكَ فَلْيَحْذَرْ هَؤُلَاءِ مِنْ حُلُولِ النِّقَمِ بِهِمْ فَإِنَّ تَكْذِيبَهُمْ لَكَ أَشَدُّ مِنْ تَكْذِيبِ غَيْرِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

قَالَ اللَّهُ{تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُالشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[النَّحْلِ: 63]

وَ قَالَ{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ}[الْأَنْعَامِ: 34]

أَيْ:كَيْفَ نَصَرْنَاهُمْ وَ جَعَلْنَا الْعَاقِبَةَ لَهُمْ وَ لِأَتْبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ.

(وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ)و الحال أن قومك يكفرون بالرحمن فلم يقابلوا رحمته و إحسانه-التى أعظمها أن:-

1-أرسلناك إليهم رسولا

2-و أنزلنا عليك كتابا-بالقبول و الشكر بل قابلوها بالإنكار و الرد

أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة كيف أخذهم الله بذنوبهم

*هَذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي بَعَثْنَاكَ فِيهِمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ لَا يُقِرُّونَ بِهِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْنَفُونَ مِنْ وَصْفِ اللَّهِ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَ لِهَذَا أَنِفُوا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَنْ يَكْتُبُوا "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"وَ قَالُوا:-مَا نَدْرِي مَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. قَالَهُ قَتَادَةُ وَ الْحَدِيثُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الْإِسْرَاءِ: 110]

وَ فِي مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-"إِنَّ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ.

(قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ)و هذا متضمن للتوحيدين توحيد الألوهية و توحيد الربوبية.

فهو ربى الذى ربانى بنعمه منذ أوجدنى و هو إلهى الذى(عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ)فى جميع أمورى

(وَإِلَيۡهِ مَتَابِ)مرجع فى جميع عباداتى و فى حاجاتى ﴿٣٠﴾

*يقول تعالى مبينا فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة:-

(وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا)من الكتب الإلهية

(سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ)عن أماكنها

(أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ)جنانا و أنهارا

(أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ)لكان هذا القرآن

(بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ)فيأتى بالآيات التى تقتضيها حكمته فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟

فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟.

(أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ)يعلم(ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا)من غير معجزة؟

*فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعا و لكنه لا يشاء ذلك بل يهدى من يشاء و يضل من يشاء

*البخارى4981 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:-قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-

«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِىَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ(أجرى على يديه من المعجزات الشىء الذى يقتضى إيمان من شاهدها بصدق دعواه لأنها من خوارق العادات حسب زمانه ومكانه)وَ إِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ(المعجزة التي أعطيتها)وَحْيًا(قرآنا موحى به من الله تعالى يبقى إعجازه على مر الأزمان و لذلك يكثر المؤمنون به ويوم القيامة يكون أتباعه العاملون بشريعته المنزلة أكثر من الأتباع العاملين بالشرع الحق لكل نبي)أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»

(وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم)تنزل بهم مصيبة

(بِمَا صَنَعُواْ)بسبب كفرهم

(قَارِعَةٌ)داهية تقرع قلوبهم بالخوف و الحزن و تهلكهم و تستأصلهم.

(أَوْ تَحُلُّ)تنزل تلك المصيبة

(قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ)كالقتل و الأسر فى غزوات المسلمين

*على كفرهم لا يعتبرون و لا يتعظون و الله تعالى يوالى عليهم القوارع التى تصيبهم فى ديارهم أو تحل قريبا منها و هم مصرون على كفرهم

*كَمَا قَالَ{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[الأَحْقَافِ: 27]

وَ قَالَ{أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}[الأَنْبِيَاءِ: 44]

(حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ)الذى وعدهم به لنزول العذاب المتصل الذى لا يمكن رفعه

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ)و هذا تهديد لهم و تخويف من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم و عنادهم و ظلمهم.

{فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[إِبْرَاهِيمَ: 47] ٣١

*يقول تعالى لرسوله–مثبتا له و مسليا:–

(وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ)فلست أول رسول كذب و أوذى

(فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ)برسلهم أى: أمهلتهم مدة حتى ظنوا أنهم غير معذبين.

(ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ)بأنواع العذاب

*كَمَا قَالَ{وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ} [الحج: 48]

*البخارى4686-عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ:ثُمَّ قَرَأَ:{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}[هود: 102]

(فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ)؟كان عقابا شديدا و عذابا أليما فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك و استهزؤوا بك بإمهالنا

فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك ﴿٣٢﴾

(أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ)حافظ و رازق و عالم(عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ)

(بِمَا كَسَبَتۡۗ)فيجازيها بعملها بالجزاء العاجل و الآجل بالعدل و القسط و هو الله كمن ليس كذلك؟

و لهذا قال:-(وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ)و هو الله الأحد الفرد الصمد الذى لا شريك له و لا ند و لا نظير

(قُلۡ)لهم إن كانوا صادقين:-

(سَمُّوهُمۡۚ)لتعلم حالهم

(أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ)تخبرون الله(بِمَا لَا يَعۡلَمُ)بشركاء(فِي ٱلۡأَرۡضِ) لا يعلمهم

*فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة و هو لا يعلم له شريكا علم بذلك بطلان دعوى الشريك له و أنكم بمنزلة الذى يُعَلِّمُ الله أن له شريكا و هو لا يعلمه و هذا أبطل ما يكون

و لهذا قال:(أَم)تسمونهمشركاء(بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ)اللفظ من غير أن يكون لهم حقيقة.

أى:غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى أنه بظاهر أقوالكم.

و أما فى الحقيقة فلا إله إلا الله و ليس أحد من الخلق يستحق شيئا من العبادة

و لكن(بَلۡ زُيِّنَ)حسَّن الشيطان

(لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ)قولهم الباطل الذى مكروه و هو كفرهم و شركهم و تكذيبهم لآيات الله و مِنَ الضلال و الدعوة إليه آنَاءَ اللَّيْلِ وَ أَطْرَافَ النَّهَارِ

*كَمَا قَالَ{وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} [فُصِّلَتْ: 25]

(وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ)عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله و إلى دار كرامته

(وَمَن يُضۡلِلِ)لم يوفِّقه(ٱللَّهُ)لهدايته

(فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ)فليس له أحد يهديه و يوفقه إلى الحق و الرشاد.

*لأنه ليس لأحد من الأمر شىء وَ لِهَذَا قَالَ: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}

كَمَا قَالَ{وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}[الْمَائِدَة: 41]

وَ قَالَ{إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}[النَّحْلِ: 37] ﴿٣٣﴾

(لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ)من عذاب الدنيا لشدته و دوامه

(وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ)يقيهم من عذاب الله فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه﴿٣٤﴾

۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ
وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ
قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ
وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ
وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾
يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ
وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ
وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

(مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ)الذين تركوا ما نهاهم الله عنه و لم يقصروا فيما أمرهم به أى:صفتها و حقيقتها

(تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ)أنهار العسل و أنهار الخمر و أنهار اللبن و أنهار الماء التى تجرى فى غير أخدود فتسقى تلك البساتين و الأشجار فتحمل من جميع أنواع الثمار.

وصف الجنة -عاقبة المتقين و الكافرين -تحذير الرسول 35-37

*البخارى748 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-
خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى قَالُوا:-يَا رَسُولَ اللَّهِ رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ
ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ(تأخرت إلى الوراء)قَالَ:-
«إِنِّي أُرِيتُ الجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا وَ لَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا»
*كَمَا قَالَ{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}[محمد: 15]

(أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ)دائم أيضا .وَ قَدْ قَالَ{وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ32 لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ}[الْوَاقِعَةِ]
وَ قَالَ{وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا}[الْإِنْسَانِ: 14] وَ كَذَلِكَ ظِلُّهَا لَا يَزُولُ وَ لَا يَقْلِصُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-
{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلا ظَلِيلا}[النِّسَاءِ: 57]
*وَ قَدْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:
إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْمُجِدُّ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا"
ثُمَّ قَرَأَ: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ}[الْوَاقِعَةِ: 30]

(تِلۡكَ عُقۡبَى)عاقبةو مآل

(ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى) عاقبةو مآل

(ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ)فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟!!

*كَمَا قَالَ{لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الحَشْرِ: 20]35

(وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ)أى: مننَّا عليهم به و بمعرفته

(يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ)فيؤمنون به و يصدقونه و يفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض و تصديق بعضها بعضا

و هذه حال من آمن من أهل الكتابين

*مِنَ الْقُرْآنِ لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى صِدْقِهِ وَ الْبِشَارَةِ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الْبَقَرَةِ: 121]

وَ قَالَ{قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا107وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا} [الإِسْرَاءِ]

أَيْ:إِنْ كَانَ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ بِهِ فِي كُتُبِنَا مِنْ إِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺلَحَقًّا وَ صِدْقًا مَفْعُولًا لَا مَحَالَةَ وَ كَائِنًا فَسُبْحَانَهُ مَا أَصْدَقَ وَعْدَهُ فَلَهُ الْحَمْدُ وَحْدَهُ{وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإِسْرَاءِ: 109]

(وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ)و من طوائف الكفار المنحرفين عن الحق(مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ)أى:هذا القرآن و لا يصدقه.

(فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) إنما أنت يا محمد منذر تدعوا إلى الله

وَ هَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آلِ عِمْرَانَ: 199]

(قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ)أى:بإخلاص الدين لله وحده

(إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ)

مرجعى الذى أرجع به إليه فيجازينى بما قمت به من الدعوة إلى دينه و القيام بما أمرت به٣٦

(وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ)أى:و لقد أنزلنا هذا القرآن و الكتاب حكما عربيا أى:–

محكما متقنا بأوضح الألسنة و أفصح اللغات لئلا يقع فيه شك و اشتباه و ليوجب أن يتبع وحده

و لا يداهن فيه و لا يتبع ما يضاده و يناقضه من أهواء الذين لا يعلمون.

و لهذا توعد رسوله–مع أنه معصوم–ليمتن عليه بعصمته و لتكون أمته أسوته فى الأحكام فقال:–

(وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ)البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم

(مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ)يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب

(وَلَا وَاقٍ)يقيك من الأمر المكروه.

*وَ هَذَا وَعِيدٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَّبِعُوا سُبُلَ أَهْلِ الضَّلَالَةِ بَعْدَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مَنْ سُلُوكِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَ الْمَحَجَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ عَلَى مَنْ جَاءَ بِهَا أَفْضَلُ الصلاة و السلام ٣٧

أى: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً)

فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج و ذرية كما كان لإخوانك المرسلين فلأى شيء يقدحون فيك بذلك و هم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك إلا لأجل أغراضهم الفاسدة و أهوائهم؟

و إن طلبوا منك آية اقترحوها فليس لك من الأمر شيء.

*وَ كَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولًا بَشَرِيًّا كَذَلِكَ قَد بَعَثْنَا الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ بَشَرًا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَ يَأْتُونَ الزَّوْجَاتِ وَ يُولَدُ لَهُمْ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَ ذَرِّيَّةً وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَشْرَفِ الرُّسُلِ وَ خَاتَمِهِمْ:-{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ} [الْكَهْفِ: 110]

حقائق عن الرسل و اثبات النسخ فى الآيات 38-39

*البخارى 5063-عن أَنَس بْنَ مَالِكٍ ﷺيَقُولُ:

جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا:وَ أَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟

قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَ مَا تَأَخَّرَ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا

وَ قَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَ لاَ أُفْطِرُ وَ قَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا

فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺإِلَيْهِمْ فَقَالَ:-«أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَ اللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَ أَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَ أُفْطِرُ وَ أُصَلِّي وَ أَرْقُدُ وَ أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»

(وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)و الله لا يأذن فيها إلا فى وقتها الذي قدره و قضاه

(لِكُلِّ أَجَلٍ)مُدَّةٍ مَضْرُوبَةٍ

(كِتَابٌ) مَكْتُوبٌ بِهَا وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ

لا يتقدم عليه و لا يتأخر عنه فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجبا لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر مع أنه تعالى فعال لما يريد.

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[الْحَجِّ: 70] ٣٨

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ)من الأقدار

(وَيُثْبِتُ)يُبْقِى ما يشاء منها لحكمة يعلمها

*و هذا المحو و التغيير فى غير ما سبق به علمه و كتبه قلمه فإن هذا لا يقع فيه تبديل و لا تغيير لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل

*يُدَبِّرُ أَمْرَ السَّنَةِ فَيَمْحُو مَا يَشَاءُإِلَّا الشَّقَاءَ وَ السَّعَادَةَ وَ الْحَيَاةَ وَ الْمَوْتَ.

وَ فِي رِوَايَةٍ:-{يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ}

قَالَ:كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْحَيَاةَ وَ الْمَوْتَ وَ الشَّقَاءَ وَ السَّعَادَةَ فَإِنَّهُمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُمَا.

وَ قَالَ مُجَاهِدٌ: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ}إِلَّا الْحَيَاةَ وَ الْمَوْتَ وَ الشَّقَاءَ وَ السَّعَادَةَ فَإِنَّهُمَا لَا يَتَغَيَّرَانِ.

*و لهذا قال:(وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ)

اللوح المحفوظ الذى ترجع إليه سائر الأشياء فهو أصلها و هى فروع له و شعب

فالتغيير و التبديل يقع في الفروع و الشعب كأعمال اليوم و الليلة التى تكتبها الملائكة و يجعل الله لثبوتها

أسبابا و لمحوها أسبابا لا تتعدى تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ كما جعل الله البر و الصلة

و الإحسان من أسباب طول العمر و سعة الرزق و كما جعل المعاصى سببا لمحق بركة الرزق و العمر

و كما جعل أسباب النجاة من المهالك و المعاطب سببا للسلامة و جعل التعرض لذلك سببا للعطب

فهو الذى يدبر الأمور بحسب قدرته و إرادته و ما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه و كتبه فى اللوح المحفوظ

٣٩

*يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ:–لا تعجل عليهم بإصابة ما يوعدون به من العذاب فهم إن استمروا على طغيانهم

و كفرهم فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به

تثبيت فؤاد الرسول 40-43

(وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ)إياه فى الدنيا فتقر بذلك عينك

(أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ)قبل إصابتهم فليس ذلك شغلا لك

(فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ)و التبيين للخلق.

(وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ)فنحاسب الخلق على ما قاموا به مما عليهم و ضيعوه و نثيبهم أو نعاقبهم٤٠

ثم قال متوعدا للمكذبين:–

(أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِى ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ)و ذلك بفتح المسلمين بلاد المشركين و إلحاقها ببلاد المسلمين؟

*قيل بإهلاك المكذبين و استئصال الظالمين

و قيل: بفتح بلدان المشركين و نقصهم فى أموالهم و أبدانهم و قيل غير ذلك من الأقوال.

و الظاهر – والله أعلم– أن المراد بذلك أن أراضى هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها و يجتاحها

و يحل القوارع بأطرافها تنبيها لهم قبل أن يجتاحهم النقص و يوقع الله بهم من القوارع ما لا يرده أحد

*كَمَا قَالَ{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى} [الْأَحْقَافِ:27]

و لهذا قال:-(وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ)و يدخل فى هذا حكمه الشرعي و القدرى و الجزائى.
فهذه الأحكام التى يحكم الله فيها توجد فى غاية الحكمة و الإتقان لا خلل فيها و لا نقص بل هى مبنية على القسط و العدل و الحمد

(لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ)

فلا يتعقبها أحد و لا سبيل إلى القدح فيها بخلاف حكم غيره فإنه قد يوافق الصواب و قد لا يوافقه

(وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ)أى:فلا يستعجلوا بالعذاب فإن كل ما هو آت فهو قريب(٤١)

(وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ)برسلهم و بالحق الذى جاءت به الرسل فلم يغن عنهم مكرهم و لم يصنعوا شيئا فإنهم يحاربون الله و يبارزونه

(فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ)أى:لا يقدر أحد أن يمكر مكرا إلا بإذنه و تحت قضائه و قدره فإذا كانوا يمكرون بدينه فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة و الندم

فإن الله(يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ)أى:-همومها و إراداتها و أعمالها الظاهرة و الباطنة.
و المكر لا بد أن يكون من كسبها فلا يخفى على الله مكرهم فيمتنع أن يمكروا مكرا يضر الحق و أهله و يفيدهم شيئا

(وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ)أى:-ألهم أو لرسله؟ و من المعلوم أن العاقبة للمتقين لا للكفر و أعماله(٤٢)

كيف يمكن للأرض أن تتناقص كما قال تعالى:-(ننقصها من أطرافها) الرابط

إن الذي ينظر للأرض من الخارج يراها كرة مستديرة و لا يكاد يحسّ بأى فرق بين أقطارها.
و لكن القياسات الحديثة بينت أن هنالك نقصاناً في قطر الأرض عند القطبين.
فقطر الأرض عند خط الاستواء يزيد على قطرها عند القطبين بحدود (43) كيلو متراً تقريباً
فما هو سرّ هذا التناقص و هل هو ثابت أم يتغير مع الزمن و لماذا؟
هذه التساؤلات و غيرها كانت الشغل الشاغل لعلماء الأرض على مدى القرن العشرين.
فالأرض تدور حول نفسها بسرعة كبيرة تتجاوز الـ (1600) كيلو متراً في الساعة!
و تدور حول الشمس بسرعة هائلة تتجاوز المئة ألف كيلو متراً في الساعة!
هذا الدوران المستمر على مرّ آلاف الملايين من السنين يؤدى إلى انكماش الأرض
و تناقص قطرها عند القطبين بسبب القوة النابذة الهائلة المتولدة عند خط الاستواء.
لذلك نجد شكل الأرض بيضاويا و ليس تام الاستدارة.
إن التناقص في قطر الأرض عند طرفيها (القطبين) يتم بمعدل مليمترات كل سنة!
هذه المسافة الدقيقة لا يمكن قياسها مباشرة. و لكن تم استنتاجها من خلال الحسابات والأرقام.
فهل في كتاب الله حديث عن نقصان الأرض من أطرافها باستمرار؟

يقول عز وجل في محكم الذكر مخاطباً هؤلاء المشككين بصدق القرآن و يبين لهم حقيقة علمية هم الذين كشفوها:(أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها)[الأنبياء: 44]
و تأمل معنى كلمة (ننقصها) التى تعطي معنى الاستمرار.
فالأرض كانت تنقص من أطرافها و هى مستمرة فى التناقص.
*و حدَّد القرآن هذا التناقص عند أطراف الأرض عند القطبين المتجمدين الشمالى و الجنوبى.
هنالك كثير من التناقص فى الأرض فالكرة الأرضية تنفث ملايين الأطنان من فوهات البراكين
و يتسرب جزء منها إلى خارج الغلاف الجوى و هذا نقصان فى وزن الأرض باستمرار.
*هنالك نقصان آخر فى قمم الجبال التى تنقص باستمرار بفعل العوامل الجوية كالرياح.
*كذلك يمارس البحر دوره فى الحتّ لشواطئه فتتآكل هذه الشواطئ باستمرار و تتناقص.
و هذا يعد نقصاناً للأرض من أطراف اليابسة.
*هنالك نقصان آخر فى سرعة دوران الأرض.
فعند بداية خلق الأرض كانت أكبر من حجمها الحالى بمئتى ضعف تقريباً و كانت أسرع بعدة مرات.
*و هنالك سلسلة من التناقص الأرضية من حيث المادة و الطاقة و المجال المغنطيسى الأرضى و غير ذلك.
إذن هذه الآية شاملة لجميع أنواع النقصان الأرضى
و هذا يدل على أن المصطلحات العلمية القرآنية شاملة و تراعى تطور العلم فكلما جدَّ جديد فى كشوفات العلم اتضحت أمامنا تفسيرات جديدة للآية لم نكن نعلمها من قبل.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ
وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

14-سورة إبراهيم ﷵ-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ
﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾
ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ
أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ
وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ
أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗا)يكذبونك و يكذبون ما أرسلت به

(قُلۡ)لهم–إن طلبوا على ذلك شهيدا:–

(كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ)و شهادته بقوله و فعله و إقراره

أما قوله:–فبما أوحاه الله إلى أصدق خلقه مما يثبت به رسالته.

و أما فعله:–فلأن الله تعالى أيد رسوله و نصره نصرا خارجا عن قدرته و قدرة أصحابه و أتباعه
و هذا شهادة منه له بالفعل و التأييد.

و أما إقراره:–فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله و أنه أمر الناس باتباعه فمن اتبعه فله رضوان الله و كرامته
و من لم يتبعه فله النار و السخط و حل له ماله و دمه و الله يقره على ذلك فلو تقول عليه بعض الأقاويل
لعاجله بالعقوبة.

(وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ)و هذا شامل لكل علماء أهل الكتابين فإنهم يشهدون للرسول من آمن و اتبع الحق
صرح بتلك الشهادة التى عليه و من كتم ذلك فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره
و لو لم يكن عنده شهادة لرد استشهاده بالبرهان فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة.
و إنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن و كل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به
من غيرهم بخلاف من هو أجنبى عنه كالأميين من مشركى العرب و غيرهم

فلا فائدة فى استشهادهم لعدم خبرتهم و معرفتهم و الله أعلم43

14-تفسير سورة إبراهيم ﷺ،-مكية-بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ)

يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺلنفع الخلق ليخرج الناس من ظلمات الجهل و الكفر و الأخلاق السيئة و أنواع المعاصى إلى نور العلم و الإيمان و الأخلاق الحسنة

(بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ)أى:لا يحصل منهم المراد المحبوب لله إلا بإرادة من الله و معونة ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم. ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب فقال:-

(إِلَىٰ صِرَٰطِ)الموصل إليه و إلى دار كرامته المشتمل على العلم بالحق و العمل به

و فى ذكر (ٱلۡعَزِيزِ)بعد ذكر الصراط الموصل إليه إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعز الله قوى و لو لم يكن له أنصار إلا الله محمود فى أموره حَسَنُ العاقبة.

و ليدل ذلك على أن صراط الله من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال و نعوت الجلال و أن الذى نصبه لعباده عزيز السلطان

أصل القرآن و مهمته و لسان الرسل و وظيفتهم 1-4

(ٱلۡحَمِيدِ)حميد فى أقواله و أفعاله و أحكامه و أنه مألوه معبود بالعبادات التى هى منازل الصراط المستقيم و أنه كما أن له ملك السماوات و الأرض خلقا و رزقا و تدبيرا فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية لأنهم ملكه و لا يليق به أن يتركهم سدى(١)

(ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ)

فلما بيَّن الدليل و البرهان توعد من لم ينقد لذلك فقال:-

(وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ شَدِيدٍ)لا يقدر قدره و لا يوصف أمره (٢)

ثم وصفهم بأنهم(ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ)فرضوا بها و اطمأنوا و غفلوا عن الدار الآخرة.

(وَيَصُدُّونَ)الناس

(عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ)

التى نصبها لعباده و بينها في كتبه و على ألسنة رسله فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة و المحاربة

(وَيَبۡغُونَهَا)أى: سبيل الله

(عِوَجًاۚ)أى: يحرصون على تهجينها و تقبيحها للتنفير عنها و لكن يأبى الله إلا أن يتم نوره و لو كره الكافرون.

(أُوْلَٰٓئِكَ)الذين ذكر وصفهم

(فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ)لأنهم ضلوا و أضلوا و شاقوا الله و رسوله و حاربوهما فأى ضلال أبعد من هذا ؟!!

و أما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء يؤمنون بالله و آياته و يستحبون الآخرة على الدنيا و يدعون إلى سبيل الله و يحسنونها مهما أمكنهم و يبينون استقامتها﴿٣﴾

(وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ)و هذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولا

(إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ)

ما يحتاجون إليه و يتمكنون من تعلم ما أتى به بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التى يتكلم بها ثم يفهمون عنه فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به و نهوا عنه و قامت عليهم حجة الله

(فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ)ممن لم ينقد للهدى

(وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ)ممن اختصه برحمته.

(وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ)الذى–من عزته–أنه انفرد بالهداية و الإضلال و تقليب القلوب إلى ما شاء و من حكمته أنه لا يضع هدايته و لا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

و يستدل بهذه الآية الكريمة على:–

أن علوم العربية الموصلة إلى تبيين كلامه و كلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها و ذلك إذا تمرنوا على العربية و نشأ عليها صغيرهم و صارت طبيعة لهم فحينئذ قد اكتفوا المؤنة و صلحوا لأن يتلقوا عن الله و عن رسوله ابتداء كما تلقى عنهم الصحابة رضى الله عنهم.

*وَ قَدْ كَانَتْ هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِه:-
أَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي أُمَّةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِلُغَتِهِمْ فَاخْتَصَّ كُلَّ نَبِيٍّ بِإِبْلَاغِ رِسَالَتِهِ إِلَى أُمَّتِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ .
وَ اخْتَصَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَسُولَ اللهِ بِعُمُومِ الرِّسَالَةِ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ
*كَمَا ثَبَتَ فِي البخارى 355-عَنْ جَابِرٍ﵁قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-
"أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعطَهُن أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلى:-
نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَ جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا و طَهُورًا و أحلَّت لِيَ الْغَنَائِمُ وَ لَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلى
وَ أُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَ كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَ بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً"
*وَ قَالَ تَعَالَى:{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: 158] ﴿٤﴾

قصة موسى و قومه 5-8

(وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ)يخبر تعالى: أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به و صحته و أمره بما أمر الله به رسوله محمدا ﷺبل و بما أمر به جميع الرسل قومهم

﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾أى: ظلمات الجهل و الكفر و فروعه

﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾أى: نور العلم و الإيمان و توابعه.

﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾

بنعمه عليهم و إحسانه إليهم و بأيامه فى الأمم المكذبين و وقائعه بالكافرين ليشكروا نعمه و ليحذروا عقابه

*بِأَيَادِيهِ و نعَمه عَلَيْهِمْ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَ قَهْرِهِ وَ ظُلْمِهِ وَ غَشْمِهِ وَ إِنْجَائِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ عَدْوِهِمْ وَ فَلْقِهِ لَهُمُ الْبَحْرَ وَ تَظْلِيلِهِ إِيَّاهُمْ بِالْغَمَامِ وَ إِنْزَالِهِ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾أى: فى أيام الله على العباد

﴿لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾أي: صبار فى الضراء و العسر و الضيق

﴿شَكُورٖ﴾على السراء و النعمة.

*مسلم (2999) عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَ لَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»﴿٥﴾

وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ
سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ
(٦) وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ (٧)
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ
جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ
وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ (٩) ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا
تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ (١٠)

(وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ)فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته و عميم إحسانه و تمام عدله و حكمته

*و لهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه فذكرهم نعم الله فقال:-

(ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ)بقلوبكم و ألسنتكم.

(إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ)يولونكم(سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ)أشده و فسر ذلك بقوله:

(وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ)يبقونهن فلا يقتلونهن

(وَفِي ذَٰلِكُم)الإنجاء (بَلَآءٞ)نعمة(مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ)لينظر هل تشكرون أم لا؟

(وَفِي ذَٰلِكُم)العذاب(بَلَآءٞ)ابتلاء(مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ)لينظر هل تصبرون أم لا؟

وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ هَذَا وَ هَذَا كَمَا قَالَ:-{وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الْأَعْرَافِ: 168] 6

و قال لهم حاثا على شكر نعم الله:-

(وَإِذۡ تَأَذَّنَ)أعلم و وعد(رَبُّكُمۡ)

*وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى:-وَ إِذْ أَقْسَمَ رَبُّكُمْ وَ آلَى بِعِزَّتِهِ وَ جَلَالِهِ وَ كِبْرِيَائِهِ كَمَا قَالَ:-

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [الْأَعْرَافِ: 167]

(لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ)من نعمى

(وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ)النِّعَمَ وَ سَتَرْتُمُوهَا وَ جَحَدْتُمُوهَا

(إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)و من ذلك أن يزيل عنهم النعمة التى أنعم بها عليهم.

و الشكر: –

1–هو اعتراف القلب بنعم الله

2–و الثناء على الله بها

3–و صرفها فى مرضاة الله تعالى. و كفر النعمة ضد ذلك 7

(وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا)فلن تضروا الله شيئا

(فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ)فالطاعات لا تزيد فى ملكه و المعاصى لا تنقصه و هو كامل الغنى

(حَمِيدٌ)فى ذاته و أسمائه و صفاته و أفعاله ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد و كمال و لا من الأسماء إلا كل اسم حسن و لا من الأفعال إلا كل فعل جميل.

*هُوَ غَنِيٌّ عَنْ شُكْرِ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْحَمِيدُ الْمَحْمُودُ وَ إِنَّ كَفَرَهُ مَنْ كَفَرَهُ كَمَا قَالَ:-

{إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}[الزُّمَر: 7]

وَ قَالَ{فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[التَّغَابُن: 6]

*مسلم(2577) عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:-

«....يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَ آخِرَكُمْ وَ إِنْسَكُمْ وَ جِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ 8

*يقول تعالى مخوفا عباده ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل فكذبوهم فعاقبهم بالعقاب العاجل الذى رآه الناس و سمعوه فقال:–

من أنباء الأمم السابقة مع رسلهم 9-17

(أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ)و قد ذكر الله قصصهم فى كتابه و بسطها

(وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ)من كثرتهم و كون أخبارهم اندرست.

فهؤلاء كلهم (جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ)بالأدلة الدالة على صدق ما جاءوا به

فلم يرسل الله رسولا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم ينقادوا لها بل استكبروا عنها

(فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ)فعضُّوا أيديهم غيظًا و استنكافًا عن قَبول الإيمان

*لم يؤمنوا بما جاءوا به و لم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان كقوله:–

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ)

(وَقَالُوٓاْ)صريحا لرسلهم:–

(إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ)موقع فى الريبة و قد كذبوا فى ذلك و ظلموا ﴿٩﴾

و لهذا(قَالَتْ)لهم(رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ)فإنه أظهر الأشياء و أجلاها

فمن شك فى الله(فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)الذى وجود الأشياء مستند إلى وجوده لم يكن عنده ثقة بشىء من المعلومات حتى الأمور المحسوسة

و لهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه و لا يصلح الريب فيه

(يَدْعُوكُمْ)إلى منافعكم و مصالحكم(لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى)

أى:ليثيبكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل و الآجل فلم يدعكم لينتفع بعبادتكم بل النفع عائد إليكم.

*كَمَا قَالَ{وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ}[هُود: 3]

*وَ هَذَا يَحْتَمِلُ شَيْئَيْنِ:-

1-أَفِي وُجُودِهِ شَكٌّ فَإِنَّ الْفِطَرَ شَاهِدَةٌ بِوُجُودِهِ وَ مَجْبُولَةٌ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ فَإِنَّ الِاعْتِرَافَ بِهِ ضَرُورِيٌّ فِي الفطَرِ السَّلِيمَةِ وَ لَكِنْ قَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِهَا شَكٌّ وَ اضْطِرَابٌ فَتَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ فِي الدَّلِيلِ الْمُوَصِّلِ إِلَى وُجُودِهِ وَ لِهَذَا قَالَتْ لَهُمُ الرُّسُلُ تُرْشِدُهُمْ إِلَى طَرِيقِ مَعْرِفَتِهِ بِأَنَّهُ {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}
الَّذِي خَلَقَهَا وَ ابْتَدَعَهَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ فَإِنَّ شَوَاهِدَ الْحُدُوثِ وَ الْخَلْقِ وَ التَّسْخِيرِ ظَاهِرٌ عَلَيْهَا فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ صَانِعٍ وَ هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَهُهُ وَ مَلِيكُهُ.

2-الْمَعْنَى الثَّانِي فِي قَوْلِهِمْ:-{أَفِي اللَّهِ شَكٌّ}أَيْ:-
أَفي إِلَهِيَّتِهِ وَ تَفَرُّدِهِ بِوُجُوبِ الْعِبَادَةِ لَهُ شَكٌّ وَ هُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ وَ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَإِنَّ غَالِبَ الْأُمَمِ كَانَتْ مُقِرَّةً بِالصَّانِعِ وَ لَكِنْ تَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْوَسَائِطِ الَّتِي يَظُنُّونَهَا تَنْفَعُهُمْ أَوْ تُقَرِّبُهُمْ مِنَ اللَّهِ زُلْفَى.

فردوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين:–

(قَالُوٓاْ)لهم:–(إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا)أى:فكيف تفضلوننا بالنبوة و الرسالة

(تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا)تمنعونا(عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا)

فكيف نترك رأى الآباء و سيرتهم لرأيكم؟و كيف نطيعكم و أنتم بشر مثلنا؟

(فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ)بحجة و بينة

(مُّبِينٍ)ظاهرة و مرادهم بينة يقترحونها هم و إلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات﴿١٠﴾

قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ
وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾
وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ
﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ
لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾
وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾
يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ
وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ
فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾

(قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ) مجيبين عن اقتراحهم و اعتراضهم:-

(إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ) أى: صحيح و حقيقة أنا بشر مثلكم

(وَلَٰكِنَّ) ليس فى ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق

فإن (ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ) فإذا مَنَّ الله علينا بوحيه و رسالته فذلك فضله و إحسانه
و ليس لأحد أن يحجر على الله فضله و يمنعه من تفضله.

فانظروا ما جئناكم به فإن كان حقا فاقبلوه و إن كان غير ذلك فردوه و لا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به و قولكم: (فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) فإن هذا ليس بأيدينا و ليس لنا من الأمر شيء.

(وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ)

فهو الذى إن شاء جاءكم به و إن شاء لم يأتكم به و هو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته و رحمته

(وَعَلَى ٱللَّهِ) لا على غيره

(فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ)

فيعتمدون عليه فى جلب مصالحهم و دفع مضارهم لعلمهم بتمام كفايته و كمال قدرته و عميم إحسانه

و يثقون به فى تيسير ذلك و بحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

فعلم بهذا وجوب التوكل و أنه من لوازم الإيمان و من العبادات الكبار التى يحبها الله و يرضاها لتوقف سائر العبادات عليه 11

(وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ)أى: أى شيء يمنعنا من التوكل على الله

(وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا)و الحال أننا على الحق و الهدى و من كان على الحق و الهدى فإن هداه يوجب له تمام التوكل و كذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدى و كفايته يدعو إلى ذلك بخلاف من لم يكن على الحق و الهدى فإنه ليس ضامنا على الله فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.

و فى هذا كالإشارة من الرسل عليهم الصلاة و السلام لقومهم بآية عظيمة و هو أن قومهم–فى الغالب–لهم القهر و الغلبة عليهم فتحدتهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله فى دفع كيدكم و مكركم و جازمون بكفايته إياهم و قد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم و إطفاء ما معهم من الحق فيكون هذا كقول نوح لقومه:

(يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ)الآيات.

و قول هود عليه السلام قال:(إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ*مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ)

(وَلَنَصْبِرَنَّ)لنستمرن على دعوتكم و وعظكم و تذكيركم

و لا نبالى(عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا)بما يأتينا منكم من الأذى

فإنا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى احتسابا للأجر و نصحا لكم لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير

(وَعَلَى ٱللَّهِ)وحده لا على غيره

(فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ)فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير

و اعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم فى أعلى المطالب و أشرف المراتب و هو التوكل على الله فى إقامة دينه و نصره و هداية عبيده و إزالة الضلال عنهم و هذا أكمل ما يكون من التوكل 12

*لما ذكر دعوة الرسل لقومهم و دوامهم على ذلك و عدم مللهم ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال:–(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ)متوعدين لهم

(لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا)

و هذا أبلغ ما يكون من الرد و ليس بعد هذا فيهم مطمع لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم و نسبوها إلى أنفسهم و زعموا أن الرسل لا حق لهم فيها

و هذا من أعظم الظلم فإن الله أخرج عباده إلى الأرض

و أمرهم بعبادته و سخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته.

فمن استعان بذلك على عبادة الله حل له ذلك و خرج من التبعة

و من استعان بذلك على الكفر و أنواع المعاصى لم يكن ذلك خالصا له و لم يحل له

فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التى توعدوا الرسل بإخراجهم منها.

و إن رجعنا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم و أفراد منهم فلأى شيء يمنعونهم حقا لهم صريحا واضحا؟!

هل هذا إلا من عدم الدين و المروءة بالكلية؟

و لهذا لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره و ينصر أولياءه

*يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَتْ بِهِ الْأُمَمُ الْكَافِرَةُ رُسُلَهُمْ مِنَ الْإِخْرَاجِ مَنْ أَرْضِهِمْ وَ النَّفْيِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ

كَمَا قَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ لَهُ وَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ:{لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [الْأَعْرَافِ: 88]

وَ قَالَ قَوْمُ لُوطٍ: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [النَّمْلِ: 56]

وَ قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ:-

{وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا} [الْإِسْرَاءِ: 76] وَ قَالَ تَعَالَى:

{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الْأَنْفَالِ: 30]

وَ لِهَذَا قَالَ{فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ} كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصَّافَّاتِ: 171- 173]

وَ قَالَ تَعَالَى:{كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الْمُجَادَلَةِ: 21]

وَ قَالَ:{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: 105]

(فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ)بأنواع العقوبات 13

(وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ)العاقبة الحسنة التى جعلها الله للرسل و من تبعهم جزاء

(لِمَنْ خَافَ مَقَامِى)عليه فى الدنيا و راقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه

(وَخَافَ وَعِيدِ)أى: ما توعدت به من عصانى

فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله و المبادرة إلى ما يحبه الله.

*وَعِيدِى هَذَا لِمَنْ خَافَ مَقَامِي بَيْنَ يَدَىْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ خَشِيَ مِنْ وَعِيدِى وَ هُوَ تَخْوِيفِي وَ عَذَابِي

كَمَا قَالَ تَعَالَى:{فَأَمَّا مَنْ طَغَى37 وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا38 فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى39 وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى40 فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النَّازِعَاتِ] وَ قَالَ: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرَّحْمَنِ: 46] 14

(وَٱسْتَفْتَحُوا۟)

أى: الكفار أى: هم الذين طلبوا و استعجلوا فتح الله و فرقانه بين أوليائه و أعدائه فجاءهم ما استفتحوا به و إلا فالله حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة

*اسْتَفْتَحَتِ الْأُمَمُ عَلَى أَنْفُسِهَا كَمَا قَالُوا:-

{اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[الأنفال: 32] .

وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مُرَادًا وَ هَذَا مُرَادًا كَمَا أَنَّهُمْ اسْتَفْتَحُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ وَ اسْتَفْتَحَ رَسُولُ اللَّهِ وَ اسْتَنْصَرَ

وَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ:{إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}[الأنفال: 19] وَ اللَّهُ أَعْلَمُ.

(وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ)

أى: خسر فى الدنيا و الآخرة من تجبر على الله و على الحق و على عباد الله و استكبر فى الأرض

(عَنِيدٍ)و عاند الرسل و شاقهم. كَمَا قَالَ:-

{أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ24 مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ25 الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ}[ق] 15

(مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ)لهذا الجبار العنيد بالمرصاد فلا بد له من ورودها فيذاق حينئذ العذاب الشديد

(وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ)فى لونه و طعمه و رائحته الخبيثة و هو فى غاية الحرارة.

*فِي النَّارِ لَيْسَ لَهُ شَرَابٌ إِلَّا مِنْ حَمِيمٍ أَوْ غَسَّاقٍ فَهَذَا فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ وَ هَذَا فِي غَايَةِ الْبَرْدِ وَ النَّتَنِ كَمَا قَالَ:-

{هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ57 وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [ص] 16

(يَتَجَرَّعُهُۥ)من العطش الشديد

*يَتَغَصَّصُهُ وَ يَتَكَرَّهُهُ أَيْ: يَشْرَبُهُ قَهْرًا وَ قَسْرًا لَا يَضَعُهُ فِي فِيهِ حَتَّى يَضْرِبَهُ الْمَلَكُ بِمِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ} [الحج: 21]

(وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ)فإنه إذا قرب إلي وجهه شواه و إذا وصل إلي بطنه قطع ما أتى عليه من الأمعاء

*يَزْدَرِدُهُ لِسُوءِ لَوْنِهِ وَ طَعْمِهِ وَ رِيحِهِ وَ حَرَارَتِهِ أَوْ بَرْدِهِ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ.

فلا يستطيع أن يبتلعه لقذارته و حرارته و مرارته

(وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ)يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب

(وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ)فيستريح و كل نوع منه من شدته يبلغ إلي الموت و لكن الله قضى أن لا يموتوا

كما قال تعالى:(لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور وهم يصطرخون فيها

*يَأْلَمُ لَهُ جَمِيعُ بَدَنِهِ وَ جَوَارِحِهِ وَ أَعْضَائِهِ.

(وَمِن وَرَآئِهِۦ)الجبار العنيد -وَ "وراء" ها هنا بِمَعْنَى "أَمَامُ" كَمَا قَالَ{وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}
[الكهف: 79]

وَ كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَؤُهَا (وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ)أَيْ: مِنْ وَرَاءِ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ جَهَنَّمُ أَيْ:-

هِيَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ يَسْكُنُهَا مُخَلَّدًا يَوْمَ الْمَعَادِ وَ يُعْرَضُ عليها غدوا و عشيا إلى يوم التناد.

(عَذَابٌ غَلِيظٌ)قوى شديد لا يعلم وصفه و شدته إلا الله تعالى 17

ضرب المثل لأعمال الكفار 18

(مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ)

يخبر تعالى عن أعمال الكفار التى عملوها:-

1-إما أن المراد بها الأعمال التى عملوها لله بأنها فى ذهابها و بطلانها و اضمحلالها كاضمحلال الرماد الذى هو أدق الأشياء و أخفها

إذا (ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ)شديد الهبوب فإنه لا يبقى منه شيئا و لا يقدر منه على شيء يذهب و يضمحل فكذلك أعمال الكفار كَمَا قَالَ{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفُرْقَان: 23]

(لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ)و لا على مثقال ذرة منه لأنه مبنى على الكفر و التكذيب.

ذلك السعى و العمل على غير أساس

(ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ)حيث بطل سعيهم و اضمحل عملهم

2-و إما أن المراد بذلك أعمال الكفار التى عملوها ليكيدوا بها الحق فإنهم يسعون و يكدحون فى ذلك و مكرهم عائد عليهم و لن يضروا الله و رسله و جنده و ما معهم من الحق شيئا١٨

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾
وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ
أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ
وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى
وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ
إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾

الله خالق الكون وحده 19-20

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ)ينبه تعالى عباده بأنه(خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ)

1- ليعبده الخلق و يعرفوه

2-و يأمرهم و ينهاهم

3-و ليستدلوا بهما و ما فيهما على ما له من صفات الكمال

4-و ليعلموا أن الذي خلق السماوات و الأرض-على عظمهما و سعتهما-قادر على أن يعيدهم خلقا جديدا ليجازيهم بإحسانهم و إساءتهم و أن قدرته و مشيئته لا تقصر عن ذلك

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأَحْقَافِ 33]

و لهذا قال:-(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

1-يحتمل أن المعنى:- إن يشأ يذهبكم و يأت بقوم غيركم يكونون أطوع لله منكم

2-و يحتمل أن المراد أنه: إن يشأ يفنيكم ثم يعيدهم بالبعث خلقا جديدا و يدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده من أحوال القيامة 19

(وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ)بممتنع بل هو سهل عليه جدا

(مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ

حوار أهل النار 21

كقوله{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [مُحَمَّدٍ: 38] 20

(وَبَرَزُوا۟)أي: الخلائق-اجْتَمَعُوا لَهُ فِي بِرَازٍ مِنَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يَسْتُرُ أَحَدًا.

(لِلَّهِ جَمِيعًا)حين ينفخ في الصور فيخرجون من الأجداث إلى ربهم فيقفون فى أرض مستوية قاع صفصف لا ترى فيها عوجا ولا أمتا و يبرزون له لا يخفى عليه منهم خافية فإذا برزوا صاروا يتحاجون و كل يدفع عن نفسه و يدافع ما يقدر عليه و لكن أنى لهم ذلك؟

(فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُاْ)أى:–التابعون و المقلدون

(لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ)و هم:–المتبوعون الذين هم قادة فى الضلال:–

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا)أى:–فى الدنيا أمرتمونا بالضلال و زينتموه لنا فأغويتمونا

(فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ)أى: و لو مثقال ذرة

(قَالُواْ)أى:–المتبوعون و الرؤساء

{وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ30 فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَفَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ}[الصافات]

و (لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ)فلا يغنى أحد أحدا

(سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ)من العذاب

(أَمْ صَبَرْنَا)عليه(مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ)ملجأ نلجأ إليه و لا مهرب لنا من عذاب الله.

*قُلْتُ:وَ الظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْمُرَاجَعَةَ فِي النَّارِ بَعْدَ دُخُولِهِمْ إِلَيْهَا كَمَا قَالَ{وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ47 قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} [غَافِرٍ]

*يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَطَبَ بِهِ إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ أَتْبَاعَهُ بَعْدَمَا قَضَى اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فَأَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّاتِ وَ أَسْكَنَ الْكَافِرِينَ الدَّرَكَاتِ فَقَامَ فِيهِمْ إِبْلِيسُ -لَعَنَهُ اللَّهُ -حِينَئِذٍ خَطِيبًا لِيَزِيدَهُمْ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ و غبنا إِلَى غبنهم وَ حَسْرَةً إِلَى حَسْرَتِهِمْ فَقَالَ:-{إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ}

أَيْ: عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ وَ وَعَدَكُمْ فِي اتِّبَاعِهِمُ النَّجَاةَ وَ السَّلَامَةَ وَ كَانَ وَعْدًا حَقًّا وَ خَبَرًا صِدْقًا

وَ أَمَّا أَنَا فَوَعَدْتُكُمْ وَ أَخْلَفْتُكُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا}[النِّسَاءِ: 120]21

(وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ)الذى هو سبب لكل شر يقع و وقع فى العالم مخاطبا لأهل النار و متبرئا منهم

تبرؤ الشيطان من اتباعه فى النار 22

(لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ)و دخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار.

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ)على ألسنة رسله فلم تطيعوه فلو أطعتموه لأدركتم الفوز العظيم

(وَوَعَدتُّكُمْ)الخير(فَأَخْلَفْتُكُمْ)أى: لم يحصل و لن يحصل لكم ما منيتكم به من الأمانى الباطلة.

(وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ)حجة على تأييد قولى

(إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ)أى: هذا نهاية ما عندى أنى دعوتكم إلى مرادى و زينته لكم

(فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ)اتباعا لأهوائكم و شهواتكم فإذا كانت الحال بهذه الصورة

(فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ)فأنتم السبب و عليكم المدار فى موجب العقاب

(مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ)بمغيثكم من الشدة التى أنتم بها(ليس معناها مناديكم أى من الصراخ و النداء)

(وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ)كل له قسط من العذاب.

(إِنِّي كَفَرۡتُ)تبرأت-جَحَدْتُ

(بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ)من جعلكم لى شريكا مع الله فلست شريكا لله و لا تجب طاعتى

كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}[الأَحْقَافِ] وَ قَالَ:-{كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [مَرْيَم: 82]

(إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ)لأنفسهم بطاعة الشيطان

(لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ)خالدين فيه أبدا.

و هذا من لطف الله بعباده أن حذرهم من طاعة الشيطان و أخبر بمداخله التى يدخل منها على الإنسان

و مقاصده فيه و أنه يقصد أن يدخله النيران

و هنا بين لنا أنه إذا دخل النار و حزبه أنه يتبرأ منهم هذه البراءة و يكفر بشركهم (وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

و اعلم أن الله ذكر فى هذه الآية أنه ليس له سلطان

و قال أيضا(إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)

فالسلطان الذى نفاه عنه هو سلطان الحجة و الدليل فليس له حجة أصلا على ما يدعو إليه

و إنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه و التزيينات ما به يتجرؤون على المعاصى.

و أما السلطان الذى أثبته فهو التسلط بالإغراء على المعاصى لأوليائه يؤُزّهم إلى المعاصى أزّا و هم الذين

سلطوه على أنفسهم بموالاته و الالتحاق بحزبه

و لهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا و على ربهم يتوكلون ﴿٢٢﴾

*و لما ذكر عقاب الظالمين ذكر ثواب الطائعين فقال:–

(وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)أى:–قاموا بالدين قولا و عملا و اعتقادا

فوز المؤمنين بالجنة

(جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ)

فيها من اللذات و الشهوات ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر

(خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ)أى: لا بحولهم و قوتهم بل بحول الله و قوته

(تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ)أى: يحيي بعضهم بعضا بالسلام و التحية و الكلام الطيب.

*كَمَا قَالَ{حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ} [الزُّمَر: 73]

وَ قَالَ{وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ23سَلامٌ عَلَيْكُمْ}[الرَّعْد: 23 24] وَ قَالَ{وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا} [الْفُرْقَان: 75] ٢٣

(أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ)و هى شهادة أن لا إله إلا الله و فروعها

مثل الكلمة الطيبة و الخبيثة 24-27

(كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ)و هى النخلة –وَ هُوَ الْمُؤْمِنُ-شجرة فى الجنة

(أَصۡلُهَا ثَابِتٞ)فى الأرض–يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ

(وَفَرۡعُهَا)منتشر

(فِي ٱلسَّمَآءِ)يَقُولُ: يُرْفَعُ بِهَا عَمَلُ الْمُؤْمِنِ إِلَى السَّمَاءِ. و هى كثيرة النفع دائما .

*وَ هَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ و غيرِ واحد:-إِنَّ ذَلِكَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمُؤْمِنِ وَ قَوْلِهِ الطَّيِّبِ وَ عَمَلِهِ الصَّالِحِ وَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ كَالشَّجَرَةِ مِنَ النَّخْلِ لَا يَزَالُ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ فِي كُلِّ حِينٍ وَ وَقْتٍ وَ صَبَاحٍ وَ مَسَاءٍ.

*البخارى4698 - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺفَقَالَ:-

أَخْبِرُونِى بِشَجَرَةٍ تُشْبِهُ أَوْ:-كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ لاَ يَتَحَاتُّ(يتساقط و يتناثر)وَرَقُهَا وَ لاَ وَ لاَ وَ لاَ(تكرار لكلمة لا ثلاث مرات وأشار بهذا إلى ثلاث صفات أخر للنخلة ذكرها رسول الله ﷺولم يذكرها الراوى)تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ(لا ينقطع ثمرها ولا يتأخر عن وقته)قَالَ ابْنُ عُمَرَ:-

فَوَقَعَ فِى نَفْسِى أَنَّهَا النَّخْلَةُ وَ رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَ عُمَرَ لاَ يَتَكَلَّمَانِ فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِىَ النَّخْلَةُ»فَلَمَّا قُمْنَا قُلْتُ لِعُمَرَ: يَا أَبَتَاهُ وَ اللَّهِ لَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِى نَفْسِى أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكَلَّمَ؟ قَالَ: لَمْ أَرَكُمْ تَكَلَّمُونَ فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ أَوْ أَقُولَ شَيْئًا

قَالَ عُمَرُ: لأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا(أى من حمر النعم كما صرح به فى رواية أخرى)٢٤

تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾
وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾
۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ
﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾
قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ
وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا
لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾
وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

(تُؤْتِي أُكُلَهَا)ثمرتها(كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)

فكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت فى قلب المؤمن علما و اعتقادا.

و فرعها من الكلم الطيب و العمل الصالح و الأخلاق المرضية و الآداب الحسنة فى السماء

دائما يصعد إلى الله منه من الأعمال و الأقوال التى تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن و ينفع غيره

(وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

ما أمرهم به و نهاهم عنه فإن فى ضرب الأمثال تقريبا للمعانى المعقولة من الأمثال المحسوسة

و يتبين المعنى الذى أراده الله غاية البيان و يتضح غاية الوضوح و هذا من رحمته و حسن تعليمه.

فلله أتم الحمد و أكمله و أعمه فهذه صفة كلمة التوحيد و ثباتها فى قلب المؤمن25

ثم ذكر ضدها و هى كلمة الكفر و فروعها فقال:—

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ)المأكل و المطعم و هى: شجرة الحنظل و نحوها

(اجْتُثَّتْ)اقتلعت هذه الشجرة(مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ)

أى: من ثبوت فلا عروق تمسكها و لا ثمرة صالحة تنتجها بل إن وجد فيها ثمرة فهى ثمرة خبيثة

كذلك كلمة الكفر و المعاصى ليس لها ثبوت نافع فى القلب و لا تثمر إلا كل قول خبيث و عمل خبيث

يستضر به صاحبه و لا ينتفع فلا يصعد إلى الله منه عمل صالح و لا ينفع نفسه و لا ينتفع به غيره26

(يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ)

*يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين أي: الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام الذى يستلزم أعمال الجوارح و يثمرها فيثبتهم الله فى الحياة الدنيا:–

1–عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين

2–و عند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس و مراداتها.

و فى الآخرة:–

1–عند الموت بالثبات على الدين الإسلامى و الخاتمة الحسنة

2–و فى القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح إذا قيل للميت« من ربك؟ و ما دينك؟ و من نبيك؟ »

هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن:–« الله ربى و الإسلام دينى و محمد نبيى »

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-النسائى 2057 -عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-
{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: 27] قَالَ:-"نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ يُقَالُ لَهُ:-
مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ:-رَبِّيَ اللَّهُ وَ دِينِي دِينُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَذَلِكَ قَوْلُهُ:-
{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: 27]

(وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ)عن الصواب في الدنيا و الآخرة

و ما ظلمهم الله و لكنهم ظلموا أنفسهم و في هذه الآية دلالة على فتنة القبر و عذابه و نعيمه كما تواترت بذلك النصوص عن النبى ﷺفى الفتنة و صفتها و نعيم القبر و عذابه.

(وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ)من توفيق أهل الإيمان و خِذْلان أهل الكفر و الطغيان

*وَ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فى تفسيره عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ:-
{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ {وَفِي الْآخِرَةِ}الْمَسْأَلَةُ فِي الْقَبْرِ .
*داود 3221 -عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺقَالَ:-كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ
فَقَالَ:-«اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَ سَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»٢٧

يقول تعالى – مبينا حال المكذبين لرسوله من كفار قريش و ما آل إليه أمرهم:–

(أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا) مصير من يكفر نعمة الله 28-30

استبدلوا الكفر بالله بدلا عن شكره على نعمة الأمن بالحرم و بعثة النبى محمد ﷺ فيهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات فى الدنيا و الآخرة و إلى النجاة من شرور الدنيا و الآخرة

*البخارى 4700 -عن ابْنِ عَبَّاسٍ {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا} [إبراهيم: 28]
قَالَ: «هُمْ كُفَّارُ أَهْلِ مَكَّةَ»وَ هذا هو الْمَشْهُورُ الصَّحِيحُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ إِنْ كَانَ الْمَعْنَى يَعُمُّ جَمِيعَ الْكُفَّارِ
*قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ:عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ:
أَنَّ ابْنَ الْكَوَّاءِ سَأَلَ عَلِيًّا عَنْ {الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}قَالَ:-كَفَّارُ قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ.

*فبدلوا هذه النعمة بردها و الكفر بها و الصد عنها بأنفسهم.

(و) صدهم غيرهم حتى (وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ)الهلاك

و هي النار حيث تسببوا لإضلالهم فصاروا وبالا على قومهم من حيث يظن نفعهم

و من ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم « بدر » ليحاربوا الله و رسوله فجرى عليهم ما جرى و قتل كثير من

كبرائهم و صناديدهم في تلك الوقعة﴿٢٨﴾

(جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ)يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم

(وَبِئۡسَ)و قَبُحَ(ٱلۡقَرَارُ)المستقر مستقرهم﴿٢٩﴾

(وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا)نظراء و شركاء

(لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ)ليضلوا العباد عن سبيل الله بسبب ما جعلوا لله من الأنداد و دعوهم إلى عبادتها

(قُلۡ)لهم متوعدا:—

(تَمَتَّعُواْ)بكفركم و ضلالكم قليلا فليس ذلك بنافعكم

(فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ)مآلكم و مقركم و مأواكم فيها و بئس المصير(إِلَى ٱلنَّارِ)﴿٣٠﴾

(قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)المؤمنين آمرا لهم بما فيه غاية صلاحهم و أن ينتهزوا الفرصة قبل أن لا يمكنهم ذلك:

(يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ)ظاهرا و باطنا

توجيهات للمؤمنين 31

(وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ)من النعم التي أنعمنا بها عليهم قليلا أو كثيرا

(سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ)و هذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة و نفقة من تجب عليه نفقته و المستحبة كالصدقات و نحوها.

(مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ)القيامة

(لَّا بَيۡعٞ فِيهِ)أي: لا ينفع فيه شيء و لا سبيل إلى استدراك ما فات لا بمعاوضة بيع و شراء

(وَلَا خِلَٰلٌ)و لا بهبة خليل و صديق

فكل امرئ له شأن يغنيه فليقدم العبد لنفسه و لينظر ما قدمه لغد و ليتفقد أعماله و يحاسب نفسه قبل

الحساب الأكبر. كَمَا قَالَ{فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}[الْحَدِيدِ: 15] ﴿٣١﴾

يخبر تعالى:—أنه وحده(ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ)على اتساعهما و عظمهما

مظاهر قدرة الله و وفرة نعمه 32-34

(وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ)المطر الذى ينزله الله من السحاب

(فَأَخۡرَجَ بِهِۦ)بذلك الماء(مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ)المختلفة الأنواع(رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ)و رزقا لأنعامكم

(وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ)السفن و المراكب.

(لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ)فهو الذى يسر لكم صنعتها و أقدركم عليها و حفظها على تيار الماء لتحملكم و تحمل تجاراتكم و أمتعتكم إلى بلد تقصدونه.

(وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ)لتسقى حروثكم و أشجاركم و تشربوا منها ﴿٣٢﴾

(وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ)لا يفتران و لا ينيان يسعيان لمصالحكم من حساب أزمنتكم و مصالح أبدانكم و حيواناتكم و زروعكم و ثماركم

*{لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: 40]

(وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ)لتسكنوا فيه(وَٱلنَّهَارَ)مبصرا لتبتغوا من فضله﴿٣٣﴾

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ

﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّىۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾

رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِىۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾

رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾

(وَءَاتَىٰكُم)أعطاكم

(مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ)مما تعلقت به أمانيكم و حاجتكم مما تسألونه إياه بلسان الحال أو بلسان المقال من أنعام و آلات و صناعات و غير ذلك.

(وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ)فضلا عن قيامكم بشكرها

*وَ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:-الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَا يُؤَدَّى شُكْرُ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِهِ إِلَّا بِنِعْمَةٍ تُوجِب عَلَى مُؤدى مَاضى نعَمه بِأَدَائِهَا نِعْمَةً حادثة تُوجِبُ عَلَيْهِ شُكْرَهُ بِهَا .

(إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ)هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرئ على المعاصى مقصر فى حقوق ربه

(كَفَّارٌ)لنعم الله لا يشكرها و لا يعترف بها إلا من هداه الله فشكر نعمه و عرف حق ربه و قام به.

*ففى هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم مجمل و مفصل يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره و ذكره و يحثهم على ذلك و يرغبهم فى سؤاله و دعائه آناء الليل و النهار

كما أن نعمه تتكرر عليهم فى جميع الأوقات(٣٤)

﴿لَا تُحۡصُوهَآ﴾!

كان الحسنُ البَصْرِيُّ رحمه الله يردد في ليلة قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[5]، فقيل له في ذلك، فقال: إن فيها لُمعتبرًا، ما نرفع طَرْفًا ولا نردُّه إلا وَقَعَ على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر[6].

إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨.

رهبان الليل/ سيد نعفاني (٢/ ٧٣).

مناجاة ابراهيم لربه 35-41

(وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ)اذكر إبراهيم عليه السلام فى هذه الحالة الجميلة

(وَإِذۡ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ)أي: الحرم

(ءَامِنٗا)فاستجاب الله دعاءه شرعا و قدرا

فحرمه الله فى الشرع و يسر من أسباب حرمته قدرا ما هو معلوم حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل و غيرهم.

*وَ قَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ فَقَالَ{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [الْعَنْكَبُوتِ: 67]

و لما دعا له بالأمن دعا له و لبنيه بالأمن فقال:-

(وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ)اجعلني و إياهم جانبا بعيدا عن عبادتها و الإلمام بها

*يَنْبَغِي لِكُلِّ دَاعٍ أَنْ يَدْعُوَ لِنَفْسِهِ وَ لِوَالِدَيْهِ وَ لِذُرِّيَّتِهِ.

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ افْتَتَنَ بِالْأَصْنَامِ خَلَائِقُ مِنَ النَّاسِ وَ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِمَّنْ عَبَدَهَا وَ رَدَّ أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ كَمَا قَالَ عِيسَى عليه السلام:{إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الْمَائِدَةِ: 118]

وَ لَيْسَ فِي هَذَا أَكْثَرُ مِنَ الرَّدِّ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَجْوِيزُ وُقُوعِ ذَلِكَ(٣٥)

*ثم ذكر الموجب لخوفه عليه و على بنيه بكثرة من افتتن و ابتلى بعبادتها فقال:-

(رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ)ضلوا بسببها

*مسلم(202) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ:-تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ:-

{رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي} [إبراهيم: 36] الْآيَةَ

وَ قَالَ عليه السلام:-{إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: 118]

فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَ قَالَ: «اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»وَ بَكَى فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:-

«يَا جِبْرِيلُ عليه السلام اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟»

فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ وَ هُوَ أَعْلَمُ فَقَالَ اللهُ:-

"يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ(هذا موافق لقول الله عز وجل ولسوف يعطيك ربك فترضى)فِي أُمَّتِكَ وَ لَا نَسُوءُكَ

(وقال عيسى)قال القاضى عياض قال بعضهم قال هو اسم للقول لا فعل يقال قال قولا وقالا وقيلا كأنه قال وتلا قول عيسى)

(فَمَن تَبِعَنِي)على ما جئت به من التوحيد و الإخلاص لله رب العالمين

(فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ)لتمام الموافقة و من أحب قوما و تبعهم التحق بهم.

(وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)و هذا من شفقة الخليل عليه السلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة و الرحمة من الله و الله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده لا يعذب إلا من تمرد عليه(٣٦)

اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي!

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي

إِبْرَاهِيمَ: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ ﴾[1] الآيَةَ، وَقَولَه إبراهيم: ٣٦
فِي عِيسَى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[2] المائدة: ١١٨
فَرفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي! وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلا نَسُوءُكَ[3]. مسلم

*لما أتى بـ « هاجر » أم إسماعيل و بابنها إسماعيل عليه السلام و هو فى الرضاع من الشام حتى وضعهما فى مكة و هى–إذ ذاك–ليس فيها سكن و لا داع و لا مجيب

*فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء فقال–متضرعا متوكلا على ربه:–

(رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي)

لا كل ذريتى لأن إسحاق فى الشام و باقى بنيه كذلك و إنما أسكن فى مكة إسماعيل و ذريته

(بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ)أى:لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة.

(رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ)أى:اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة

لأن إقامة الصلاة من أخص و أفضل العبادات الدينية فمن أقامها كان مقيما لدينه

(فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ)

لَوْ قَالَ: "أَفْئِدَةَ النَّاسِ" لَازْدَحَمَ عَلَيْهِ فَارِسُ وَ الرُّومُ وَ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى وَ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَ لَكِنْ قَالَ:-{مِنَ النَّاسِ}فَاخْتَصَّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ.

(تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ)تحبهم و تحب الموضع الذى هم ساكنون فيه.

فأجاب الله دعاءه فأخرج من ذرية إسماعيل محمدا ﷺ حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامى و إلى ملة أبيهم إبراهيم فاستجابوا له و صاروا مقيمى الصلاة.

و افترض الله حج هذا البيت الذى أسكن به ذرية إبراهيم و جعل فيه سرا عجيبا جاذبا للقلوب

فهي تحجه و لا تقضي منه وطرا على الدوام بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه و عظم ولعه و توقه و هذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة.

(وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ)

فأجاب الله دعاءه فصار يجبي إليه ثمرات كل شيء فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت و الثمار فيها متوفرة و الأرزاق تتوالى إليها من كل جانب﴿٣٧﴾

(رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ)أنت أعلم بنا منا فنسألك من تدبيرك و تربيتك لنا أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها و التي لا نعلمها ما هو مقتضى علمك و رحمتك

(وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ)

و من ذلك هذا الدعاء الذى لم يقصد به الخليل إلا الخير و كثرة الشكر لله رب العالمين﴿٣٨﴾

(ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ)فى حال الإياس من الأولاد

(إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ)فهبتهم من أكبر النعم و كونهم على الكبر و كونهم أنبياء صالحين أجل و أفضل

(إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ)لقريب الإجابة ممن دعاه و قد دعوته فلم يخيب رجائى ﴿٣٩﴾

ثم دعا لنفسه و لذريته فقال:-

(رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ)مداومًا على أداء(ٱلصَّلَوٰةِ)على أتم وجوهها

و اجعل(وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ)مَن يحافظ عليها

(رَبَّنَا)و استجب دعائى(وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ)عبادتى﴿٤٠﴾

(رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي)ما وقع منى مما لا يسلم منه البشر

و اغفر(وَلِوَٰلِدَيَّ)(و هذا قبل أن يتبيَّن له أن والده عدو لله)

و اغفر(وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ)جميعًا

(يَوۡمَ يَقُومُ)الناس لــ(ٱلۡحِسَابُ)و الجزاء.

فاستجاب الله له فى ذلك كله إلا أن دعاءه لأبيه إنما كان عن موعدة وعده إياه

فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴿٤١﴾

تهديد الظالمين بيوم القيامة و أهواله 42-52

*ثم توعد الله الظالمين و سلَّى للمظلومين يقول تعالى:-(وَلَا تَحۡسَبَنَّ)يا محمد

(ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ)حيث أمهلهم و أدرَّ عليهم الأرزاق و تركهم يتقلبون فى البلاد آمنين مطمئنين فليس فى هذا ما يدل على حسن حالهم فإن الله يملى للظالم و يمهله ليزداد إثما حتى إذا أخذه

لم يفلته(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

و الظلم–هاهنا–يشمل الظلم فيما بين العبد و ربه و ظلمه لعباد الله.

(إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)لا تطرف من شدة ما ترى من الأهوال و ما أزعجها من القلاقل﴿٤٢﴾

....

مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ
فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ
أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ
وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾
وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾
لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥١﴾
هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾

(مُهۡطِعِينَ)مسرعين إلى إجابة الداعى حين يدعوهم إلى الحضور بين يدى الله للحساب لا امتناع لهم و لا محيص و لا ملجأ

*كَمَا قَالَ{مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ}[القمر: 8] وَ قَالَ{يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} إِلَى قَوْلِهِ:{وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا}[طه-111]

وَ قَالَ:{يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} [الْمَعَارِج: 43] .

(مُقۡنِعِي)رافعى(رُءُوسِهِمۡ)قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان فارتفعت لذلك رءوسهم(ليس "مقنعى" من ليس من القناع)

(لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ)لا يبصرون شيئًا لهول الموقف

*بَلْ أَبْصَارُهُمْ طَائِرَةٌ شَاخِصَةٌ يُدِيمُونَ النَّظَرَ لَا يَطْرِفُونَ لَحْظَةً لِكَثْرَةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْهَوْلِ وَ الْفِكْرَةِ وَ الْمَخَافَةِ لِمَا يَحِلُّ بِهِمْ عِيَاذًا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنْ ذَلِكَ وَ لِهَذَا قَالَ:-

(وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ)فارغة من قلوبهم قد صعدت إلى الحناجر لكنها مملوءة من كل هم و غم و حزن و قلق ﴿٤٣﴾

يقول تعالى لنبيه محمدﷺ:–

(وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ)

أي: صف لهم صفة تلك الحال و حذرهم من الأعمال الموجبة للعذاب الذى حين يأتى فى شدائده و قلاقله

(فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ)بالكفر و التكذيب و أنواع المعاصى نادمين على ما فعلوا سائلين للرجعة فى غير وقتها

(رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ)ردَّنا إلى الدنيا فإنا قد أبصرنا

*كَمَا قَالَ{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ99لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[الْمُؤْمِنُونَ] وَ قَالَ{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ 9وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ}[الْمُنَافِقُونَ] وَ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي حَالِ مَحْشَرِهِمْ:-

{وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ}[السَّجْدَة: 12]

وَ قَالَ{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ27بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}[الْأَنْعَامِ] وَقَالَ{وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}[فَاطِرٍ: 37]

(نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ)و الله يدعو إلى دار السلام

(وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ)و هذا كله لأجل التخلص من العذاب و إلا فهم كذبة فى هذا الوعد

{وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام: 28]

و لهذا يوبخون و يقال لهم:-

(أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ)عن الدنيا و انتقال إلى الآخرة

فها قد تبين حنثكم في إقسامكم و كذبكم فيما تدعون

*كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا} [النَّحْلِ: 38] ﴿٤٤﴾

(وَ) ليس عملكم قاصر فى الدنيا من أجل الآيات البينات بل

(وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ)من أنواع العقوبات؟

و كيف أحل الله بهم العقوبات حين كذبوا بالآيات البينات

*قَدْ رَأَيْتُمْ وَبَلَغَكُمْ مَا أَحْلَلْنَا بِالْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ قَبْلَكُمْ وَ مَعَ هَذَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِيهِمْ مُعْتَبَرٌ وَ لَمْ يَكُنْ فِيمَا أَوْقَعْنَا بِهِمْ مُزْدَجَرٌ لَكُمْ{حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ} [الْقَمَرِ: 5]

(وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ)الواضحة التى لا تدع أدنى شك فى القلب إلا أزالته فلم تنفع فيكم تلك الآيات بل أعرضتم و دمتم على باطلكم حتى صار ما صار و وصلتم إلى هذا اليوم الذى لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل ﴿٤٥﴾

(وَقَدۡ مَكَرُواْ)أى: المكذبون للرسل

(مَكۡرَهُمۡ)الذى وصلت إرادتهم و قدر لهم عليه و قد دبَّر المشركون الشرَّ للرسول ﷺ بقتله

(وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ)هو محيط به علما و قدرة فإنه عاد مكرهم عليهم{وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}[فاطر: 43]

(وَإِن)و ما (كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ)و لا غيرها لضعفه و وَهَنه+

*هَذَا الَّذِى فَعَلُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَ شِرْكِهِمْ بِهِ مَا ضَرَّ ذَلِكَ شَيْئًا مِنَ الْجِبَالِ وَ لَا غَيْرِهَا وَ إِنَّمَا عَادَ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.قُلْتُ:وَ يُشْبِهُ هَذَا إِذًا قَوْلَهُ:-

{وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} [الإسراء: 37]

*و لقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل بالحق و بمن جاء به–من عظمه–لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها أى:(مَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا)لا يقادر قدره و لكن الله رد كيدهم فى نحورهم.

و يدخل فى هذا كل من مكر من المخالفين للرسل لينصر باطلا أو يبطل حقا و القصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئا و لم يضروا الله شيئا و إنما ضروا أنفسهم.

وَ الْقَوْلُ الثَّانِي فِي تَفْسِيرِهَا:-

*عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} يَقُولُ شِرْكُهُمْ كَقَوْلِهِ:

{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا} [مَرْيَم] ﴿٤٦﴾

(فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ)

بنجاتهم و نجاة أتباعهم و سعادتهم و إهلاك أعدائهم و خذلانهم فى الدنيا و عقابهم فى الآخرة فهذا لا بد من وقوعه لأنه وعد به الصادق قولا على ألسنة أصدق خلقه و هم الرسل و هذا أعلى ما يكون من الأخبار خصوصا و هو مطابق للحكمة الإلهية و السنن الربانية و للعقول الصحيحة و الله تعالى لا يعجزه شىء

فــ(إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ)أى:إذا أراد أن ينتقم من أحد فإنه لا يفوته و لا يعجزه﴿٤٧﴾

و ذلك فى يوم القيامة(يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ)

تبدل غير السماوات و هذا التبديل تبديل صفات لا تبديل ذات فإن الأرض يوم القيامة تسوى و تمد كمد الأديم و يلقى ما على ظهرها من جبل و مَعْلم فتصير قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا و لا أمتا و تكون السماء كالمهل من شدة أهوال ذلك اليوم ثم يطويها الله–تعالى–بيمينه.

*البخارى6521-عن سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺيَقُولُ:

«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ(بيضاء مشوبة بحمرة)كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ (كرغيف مصنوع من دقيق خالص من الغش والنخالة)»

قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ:-«لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ (علامة يستدل بها أى مستوية لا حدب فيها ولا بناء عليها و لا شىء سواه)لِأَحَدٍ»

*مسلم (2791) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺعَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:-

{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [إبراهيم: 48]فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟فَقَالَ:-«عَلَى الصِّرَاطِ»

*أحمد 24856-عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَتَدْرِي مَا سِعَةُ جَهَنَّمَ؟

قُلْتُ: لَا قَالَ: أَجَلْ وَ اللهِ مَا تَدْرِي إِنَّ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ وَ بَيْنَ عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ خَرِيفًا تَجْرِي فِيهَا أَوْدِيَةُ الْقَيْحِ وَ الدَّمِ قُلْتُ: أَنْهَارًا؟ قَالَ: لَا بَلْ أَوْدِيَةً

ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا سِعَةُ جَهَنَّمَ؟قُلْتُ: لَا قَالَ: أَجَلْ وَاللهِ مَا نَدْرِى حَدَّثَتْنِى عَائِشَةُ أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺعَنْ قَوْلِهِ:{وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}[الزمر 67]

فَأَيْنَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟قَالَ: " هُمْ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ "
*مسلم (315) عن ثَوْبَان مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺحَدَّثَهُ قَالَ:
كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺفَجَاءَ حِبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَقَالَ:
السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟
فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ:-إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ.
فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-«إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي»فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ
فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟»قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ فَنَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺبِعُودٍ مَعَهُ
فَقَالَ: «سَلْ» فَقَالَ الْيَهُودِيُّ:-أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمَاوَاتُ؟
فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ»

(وَبَرَزُواْ)أي: الخلائق من قبورهم إلي يوم بعثهم و نشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء

(لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ)

المتفرد بعظمته و أسمائه و صفاته و أفعاله العظيمةو قهره لكل العوالم فكلها تحت تصرفه و تدبيره

فلا يتحرك منها متحرك و لا يسكن ساكن إلا بإذنه ﴿٤٨﴾

(وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ)أي: الذين وصفهم الإجرام و كثرة الذنوب

(يَوۡمَئِذٖ)في ذلك اليوم

(مُّقَرَّنِينَ)مقيدين(فِي ٱلۡأَصۡفَادِ)بالقيود

*يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار فيقادون إلى العذاب في أذل صورة و أشنعها و أبشعها.
*بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَدْ جُمِعَ بَيْنَ النُّظَرَاءِ أَوِ الْأَشْكَالِ مِنْهُمْ كُلِّ صِنْفٍ إِلَى صِنْفٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى:
{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [الصَّافَّات: 22]وَ قَالَ:{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التَّكْوِير: 7]
وَ قَالَ:{وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا}[الْفُرْقَان: 13]
وَ قَالَ:{وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ37 وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ}[ص] ﴿٤٩﴾

(سَرَابِيلُهُم)ثيابهم(مِّن قَطِرَانٖ)الَّذِي تُهنأ بِهِ الْإِبِلُ أَيْ: تُطْلَى وَ هُوَ أَلْصَقُ شَيْءٍ بِالنَّارِ
و ذلك لشدة اشتعال النار فيهم و حرارتها و نتن ريحها

(وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ)التي هي أشرف ما في أبدانهم

(ٱلنَّارُ)تحيط بها و تصلاها من كل جانب و غير الوجوه من باب أولى و أحرى

و ليس هذا ظلما من الله لهم و إنما هو جزاء لما قدموا و كسبوا كَقَوْلِهِ:-{تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ}
[الْمُؤْمِنُونَ: 104]
*مسلم(934) عن أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيَّ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:-
أَرْبَعٌ(خصال أربع كائنة)فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ(أي كل الترك إن تتركه طائفة يفعله آخرون):-

1-الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ
2-وَ الطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ
3-وَ الْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ(يعنى اعتقادهم نزول المطر بسقوط نجم فى المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من المشرق كما كانوا يقولون مطرنا بنوء كذا)
4-وَ النِّيَاحَةُ "
وَ قَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ عَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَ دِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»
(يعني يسلط على أعضائها الجرب والحكة بحيث يغطى بدنها تغطية الدرع وهو القميص)(٥٠)

و لهذا قال(لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ)من خير و شر بالعدل و القسط الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه.

*كَمَا قَالَ: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} [النَّجْم: 31]

(إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ)

1–كقوله تعالى:(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)[الانبياء :1]

2–و يحتمل أن معناه: سريع المحاسبة فيحاسب الخلق فى ساعة واحدة كما يرزقهم و يدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة لا يشغله شأن عن شأن و ليس ذلك بعسير عليه.

*وَ إِنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَتِهِ كَالْوَاحِدِ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ{مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ}[لُقْمَانَ: 28](٥١)

*فلما بين البيان المبين في هذا القرآن قال في مدحه:–

(هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ)يتبلغون به و يتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات و أفضل الكرامات لما اشتمل عليه من الأصول و الفروع و جميع العلوم التى يحتاجها العباد. كَقَوْلِهِ:-{لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الْأَنْعَامِ: 19]

(وَلِيُنذَرُواْ)لِيَتَّعِظُوا(بِهِۦ)لما فيه من الترهيب من أعمال الشر و ما أعد الله لأهلها من العقاب

(وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ)يَسْتَدِلُّوا بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَ الدَّلَالَاتِ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ حيث صرف فيه من الأدلة و البراهين على ألوهيته و وحدانيته ما صار ذلك حق اليقين

(وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ)

العقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه و ما يضرهم فيتركونه و بذلك صاروا أولي الألباب و البصائر.

إذ بالقرآن ازدادت معارفهم و آراؤهم و تنورت أفكارهم لما أخذوه غضًّا طريًّا فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق و الأعمال و أفضلها و لا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة و أبينها.

و هذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكى لم يزل فى صعود و رقى على الدوام فى كل خصلة حميدة(٥٢)